

مطبوعات مديرية الآثار العامة في سوريا

مشاهد لمسة الأثر

صور من الوطن الحن الدفت مدح مدح مديرية الآثار العامة إلى عرب ما وراء البحار

تأليف

الدكتور

سليم عادل عبد الحق

مدير الآثار العام

الاستاذ

خالد معاذ

المدير الفني في مديرية الآثار العامة

مطبوعات مديرية الآثار العامة في سورة

مساهمات مسؤولية

صور من الوطن تحت الدفت مدح مديرية الآثار العامة إلى عرب ما وراء البحار

تأليف

الدكتور سليم عادل عبد الحق
الاستاذ خالد معاذ

الخبير الفني في مديرية الآثار العامة مدير الآثار العام

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

١٣٦٩ هـ - نصف طبعه للبرق بندر مشيق ١٩٥٠ م

DS
99
D3
A23
1950
Sures
(D 3)



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarab.com

جميع حقوق النقل والطبع والنشر محفوظة

لَدْبِرِيَّةِ الْوَسْمَارِ الْعَامِّةِ

كتاب الأسرار في حكم العرش
كتاب الأسرار في حكم العرش

دمشق قبل الفتح العربي

لعبت دمشق دوراً كبيراً في تاريخ الشرق القديم ، قبل أن تصبح عاصمة العالم العربي في زمن الاموريين . وكانت نشأتها في غوطتها الخصبة ، على أيدي سكانها الاول ، الذين استعمروا أراضيها ، ونظموا سقايتها ، منذ عصور الالف الثالثة قبل المسيح . فهي إذن من أقدم مدن الدنيا فاطبة .

وكانت في بادئ أمرها مدينة صغيرة زراعية ، لا تزيد أهميتها عن اهمية قرية من قراها الاثنين والاربعين الحالية المتوزعة حولها ، في المنطقة التي يخصبها نهر بودي وفروعه . غير ان موقعها هذا بالقرب من جبل فاسيون حيث تلتقي الطرق التجارية المؤدية الى بلاد الرافدين ومصر وشبه جزيرة العرب ، بالطرق المؤصلة إلى المناطق الساحلية ، ساعدها على ان تصبح مدينة تجارية مهمة . كما ان حاصلاتها الزراعية والبضائع التي حملتها التجارة ، ساهمت في جعلها مدينة صناعية تغذى بمنتجاتها مناطق الداخل والداخل .

وليس لدينا وبالأسف من الوثائق التاريخية إلا نذر يسير ؛ لا يكفي لايضاح اعمال ملوكها الآراميين ، الذين جعلوا منها عاصمة لا أكبر مملكة آرامية في سوريا خلال النصف الثاني من الالف الثانية قبل الميلاد . ولم يصل إلينا عن اسلاف عبدي عشرتا وآذريو الذين تذكرهما النصوص المصرية ، وعن خلفائهم إلا اخبار قليلة لا تتفع ظماناً ، ولا تلقي إلا نوراً باهتاً على طفولتها العجيبة .

ومهما يكن فقد زاد في اهميتها عامل ديني هام . وهو تشييد معبد الاله السوري القديم (حدد) ، رب الامطار والصواعق والجبال العالية ، في وسطها . وحدث ان ذاعت شهرة هذا المعبد في اول الالف الاولى قبل الميلاد ، واصبح بعد من اعظم المعابد السورية الوثنية آنذاذ .

ومرت العصور . وبعد ان كانت دمشق تابعة اسبياً للفراعنة ، استولى عليها الآشوريون والبابليون والفرس ، وضموها الى امبراطوريتهم الواسعة ، التي كانت تنشأ وتند كامواج البحر المتعاقبة ، على بقاع واسعة من الشرق الادنى . حتى حانت سنة ٣٣٣ قبل الميلاد . وهزم الاسكندر المقدوني ، ملك الملوك ، وهدم امبراطوريته الاخادية الفارسية . فانهت مصيرها إليه ، وغدت مدينة تابعة الى دولته المقدونية . ولما مات انتشرت فيها المدنية افيلينية ، وقام يتنازع عليها وعلى سورية الوسطى الملوك السلوقيون والملوك البطالسة .

وكان العرب في القرن الاول قبل الميلاد يعيشون في تخوم سوريا والعراق ومنهم الانباط والندمريون ، ويحكمون منذ ذلك الوقت بالاستيلاء على دمشق وجعلها عاصمتهم . وقد تحقق حلمهم هذا لأول مرة في زمن الحارث الثالث ملك الانباط الذي استولى عليها سنة (٨٥ ق . م) . وافام عليها السيادة العربية مدة قليلة من الزمن . غير ان العرب لم يكونوا بعد قد حقروا وحدتهم ، وانشأوا مثلهم العليا واعدوا العدة لفتح العالم . لهذا فان توسيعهم هذا لم يدم طويلاً ، واخضروا الى التراجع . ثم اقبل القائد الروماني المشهور (بومبه) ، ومعه جيشه الكبير الذي ارسل لقتال ميريدات ملك (البون) ، وتنفيذ برنامجه روما الاستعماري في الشرق . فاستولى على سوريا الشمالية ودخل مدينة دمشق سنة (٦٤ ق . م) وفرض عليها سيادة قومه . فارتبط مصير بلاد الشام بصير الرومان منذ ذلك الوقت الى عدة قرون . ونامت فكرة دمشق عاصمة العروبة طويلاً قبل ان تستيقظ بشدة ، وتحقق بقوه سنة ٦٣٦ ميلادية .

وكان من اثر هذا النظام السياسي الجديد ان اصبحت دمشق تابعة لروما البعيدة . غير ان توقف الحروب بين الامراء السوريين ، وانتشار السلام الروماني ساعدا على ازدهار التجارة السورية ، وانصراف هم السكان الى الفاعلية الاقتصادية الدولية ، التي كانت تصرف اسهامها خاصة على شواطئ البحر الابيض المتوسط . اما المدينة الدمشقية الآرامية الملحوظة فانها لم تكن دون مدينة الفاتحين . لهذا فانها ظلت تعيش وتنتطور . ولم تتأثر من الحضارة الرومانية إلا بعض النواحي . وقد تحول معبد (حدد) الى معبد لاله (جوبيتر الدمشقي) ، وحظي المعبد الجديد

بشهرة كبيرة تعادل شهرة المعبد القديم . فنالت دمشق من ذلك لقب (دمشق الجليلة والمقدسة) . وفي زمن الامبراطور هادريان اصبحت تُعد (حاضرة) من حواضر الامبراطورية الرومانية . وفي زمن (اسكندر سيفير) اطلق عليها لقب (مستعمرة رومانية) . ونتابع تطورها العمرااني الذي ابتدأ منذ عهد السلاوقيين حسب القواعد العمراانية المثلثية بصورة منطقية . فنظمت أرضها حسب تحطيمات رقعة الشطرنج ، واصبح لها شوارع منتظمة متعمدة تتقاطع بزوايا قائمة . وقامت في جوانبها منشآت ضخمة . أشهرها : السور ، والقناة ، والاروقة على طرق بعض الشوارع ، التي منها الشارع المستقيم الخ . . .

ولقد لعبت دمشق أيضاً في نشوء المدينة المسيحية دوراً كبيراً . واستهرت بأن القديس بولس قد تنصر بصورة عجيبة فيها ، وأنه هرب متذلياً من سورها الشرقي في سلة خلصاً من شر الجالية اليهودية التي كانت تقطنها . ويقال إن القديس حنانيا كان أول أساقفتها . ولما انتصرت المسيحية نشأت فيها كنائس متعددة شأن القدس وبيت لحم وانطاكيه وبقية المدن السورية . وفي سنة (٣٧٩ م) بني الامبراطور تيودوز فيها كنيسة القديس يوحنا المعمدان مكان معبد جوبيتز ، وجعل لها ثلاثة آلهاء طولانية . كما ان ابنه الامبراطور أركاديوس ، كما يفترض بعض المؤرخين ، جعل لها بهواً مستعرضاً فيما بعد . ولا يخفى أن سوريا اشتهرت بنقاءها في كل العصور ، لذلك فانها ساهمت مساهمة فعالة في نشوء حركة الرهبنة ، وانصراف رجال الدين المسيحي الى الزهد والتقطف وبناء الأديرة خلال القرون الرابع والخامس والسادس الميلادي ، وخاصة في الشمال والجنوب منها . ويذكر لنا ابن عساكر وغيره من المؤرخين العرب اسماء خمسة عشر ديراً ، كانت مبعثرة في غوشة دمشق . وأخيراً فان هذه المدينة كانت موطنًا لبعض مشاهير آباء الكنيسة ، أمثال : (سوفرون) ويوحنا الدمشقي ، واندروس الكريبي الذي قدموا الى الافكار المسيحية كثيراً من موادها الثمينة .

(الاوج)

لوح جري منحوت من معدن حدد

لم يبق ما يدل على مدينة دمشق الaramية التي كانت تَعْتَدُ
حول معبدها وحول راية (يظن أنها قلعة السماكة الحالي) ،
إلا هذا الحجر المنحوت . وقد اكتشفته مديرية الآثار العامة
أثناء أعمال الاصلاح والترميم ، التي قامت بها في جامع بني أمية .
إذ أنه كان بين أحجار الجدار الشمالي (الزاوية الشمالية الشرقية)
وذلك في الصف الثالث فوق الأسسات الرومانية الاغريقية .
وهو من الحجر البركاني . ويبلغ طوله (٨٠ س.م) ، وعرضه
(٧٠ س.م) . ويختلف سمكه بين (٥١ س.م - ٣١ س.م) ، ويثلث أبا المولى
وهو نعشى .

وصفات الفينيقية ظاهرة . فهو متوج بناج مزدوج مسطح ،
وله ذقن طويلة ، وأجنحة مزدوجة ، بعضها فوق بعض ، وصدارة
بين قائمتيه الاماميتين المفترقيتين . ويرجع عهده على وجه التقرير
إلى القرن التاسع قبل الميلاد . ويظن أن حزاقيل ملك دمشق
أراد أن يبني معبد (حدد) وزينه ، فاستحضر لذلك فنانين
فينيقين ، كما فعل الملك سلمان في القدس .

(هذا اللوح المنحوت محفوظ في متحف دمشق).



(اللوح ٢)

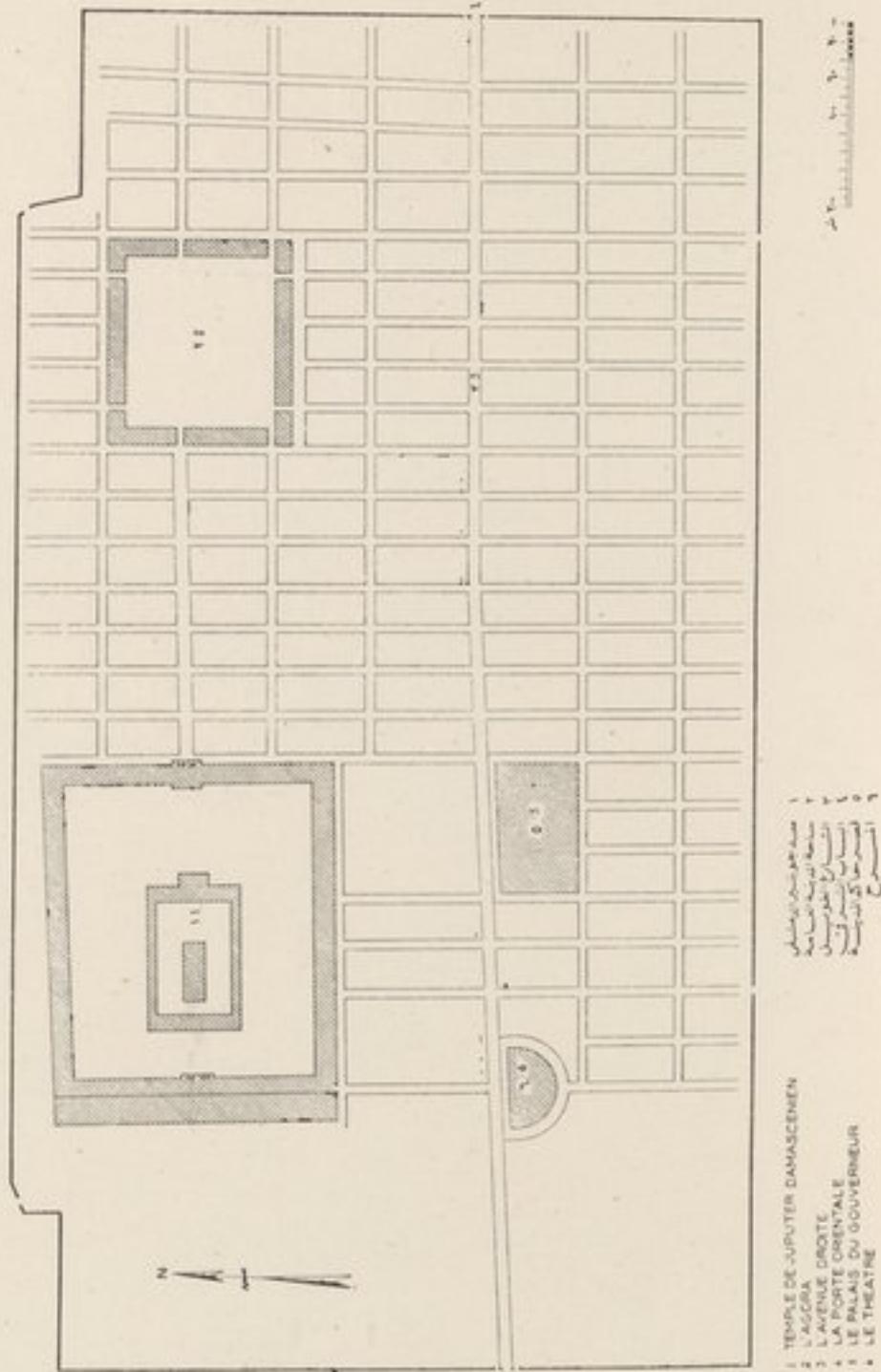
مخطط دمشق في العهد الروماني

يشاهد في الصفحة التالية أن مخطط دمشق في العهد الروماني كان منتظماً جداً. إذ أن السور المستطيل كان يحوي مساحة من الأرض تقدر بعشرة هكتار. وهي مقسومة إلى جزيرات مستطيلة تبلغ أبعاد كل منها $100 \text{ م} \times 45 \text{ م}$ ، ومفروضة عن بعضها بشوارع تتجه من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق إلى الغرب. ويلاحظ أنه كان يوجد قوس كبير وقصر حاكم المدينة ومسرح على طول الشارع الكبير. كما أن الأغورا (ساحة المدينة العامة) كانت تتصل بعبد جوينتر بشارع كبير آخر، على طرفيه نظمت الأروقة المحمولة على الأعمدة.

ويظهر أن هذا المخطط الذي يشبه تحضيرات المدن السورية التي بُنيت في العهد الهنستي، كاللاذقية وأنطاكية، وحلب في عدة نقاط، بدأ يتحقق على هذا الشكل منذ العصر الهنستي وخاصة ما يتعلق بالسور والأغورا والمعبد.

DIRECTION GENERALE
DES
ANTIQUITES
PLAN RESTITUE DE DAMAS
A L'EPOQUE ROMAINE

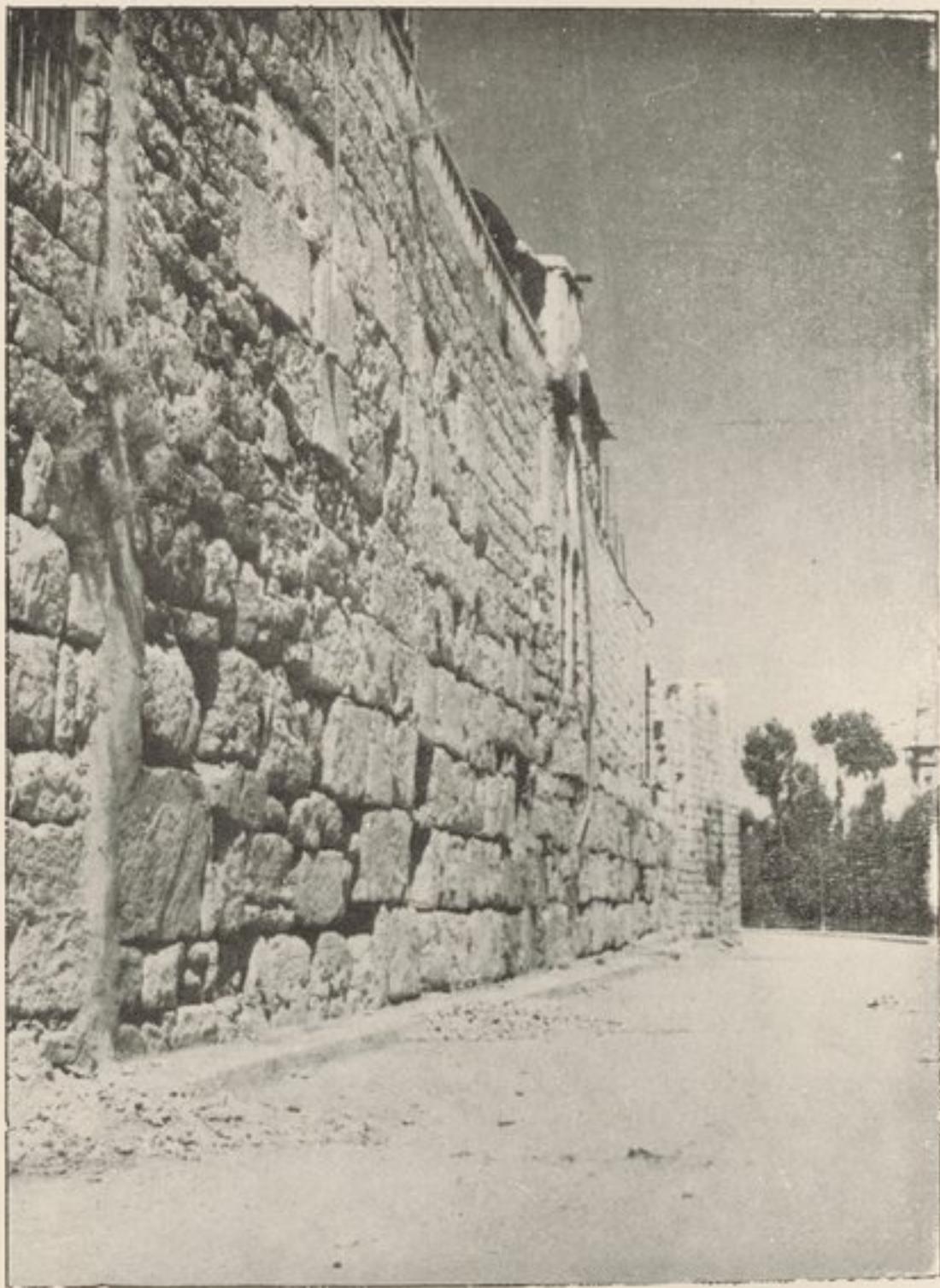
مَدِينَةٌ مُسْتَرَّةٌ
وَأَنْتَ تُنْسِيَهَا
فِي رَوْحِ الْمَوْمِنَ



(اللوح ٣)

الستور الروماني

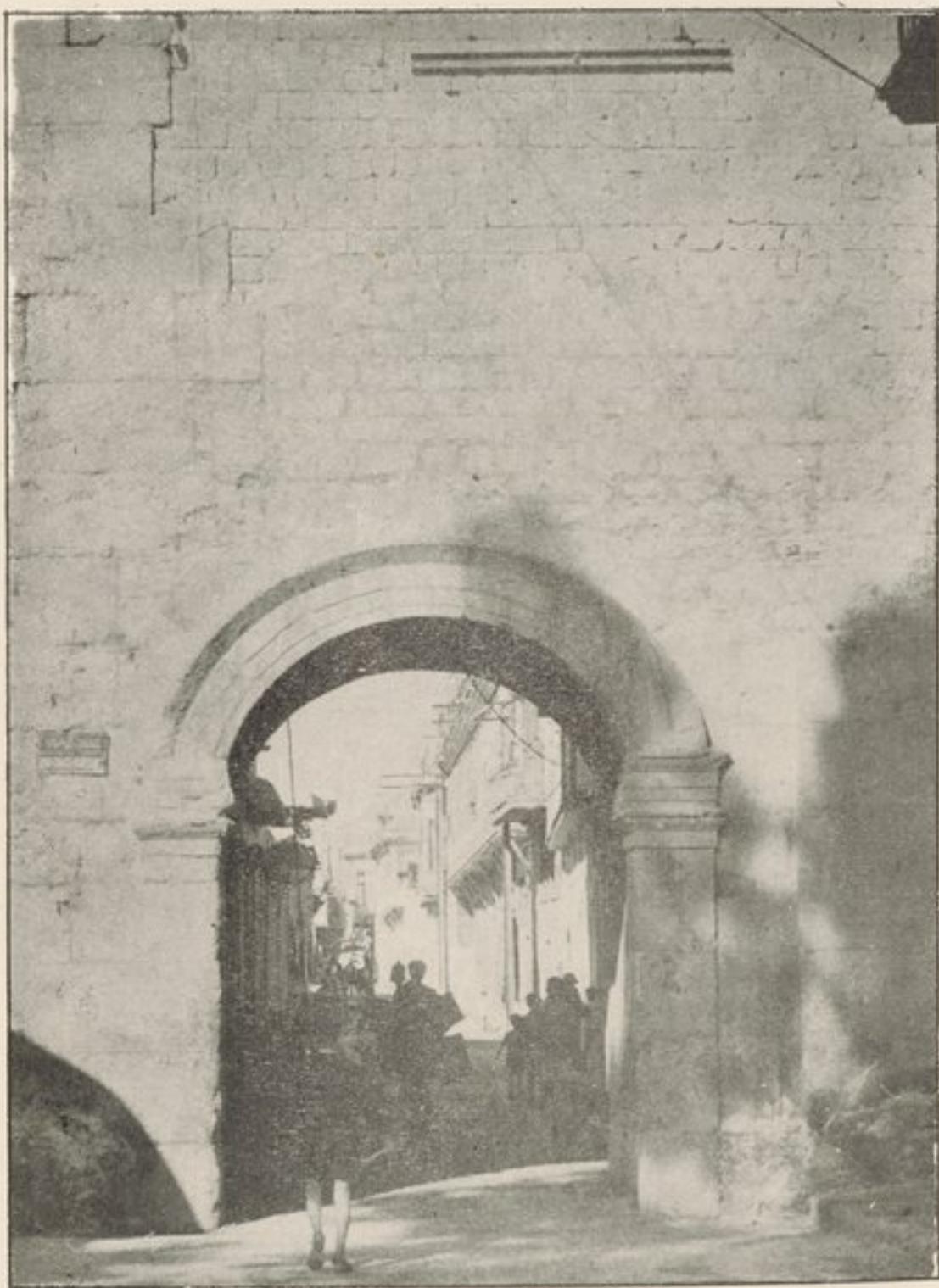
كان سور دمشق الروماني يعتمد على خط مستقيم
محدثاً شكلًا مستطيلًا منتظماً طوله (١٣٤٠ متراً)،
وعرضه (٧٥٠ متراً) تقريبًا . وقد رمم عدة مرات
في الأزمنة التالية . وانحرف عن شكله السابق ،
إلا في جزء من جنته الشرقية وجزء من جنته
الشمالية حيث يحاذي نهر عقرايا كما يرى في اللوح (٣).
وقد أعيد بناء هذا الجزء خلال العصر الوسيط ، في
قسمه السفلي من أحجار قديمة ، واتبع الاتجاه القديم
الذي كان له سابقاً .

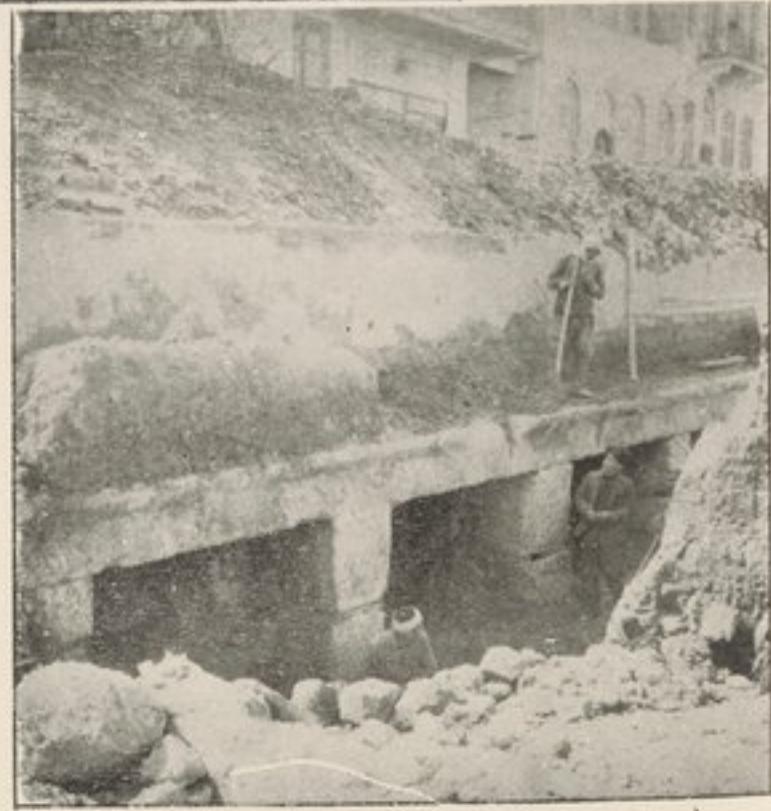
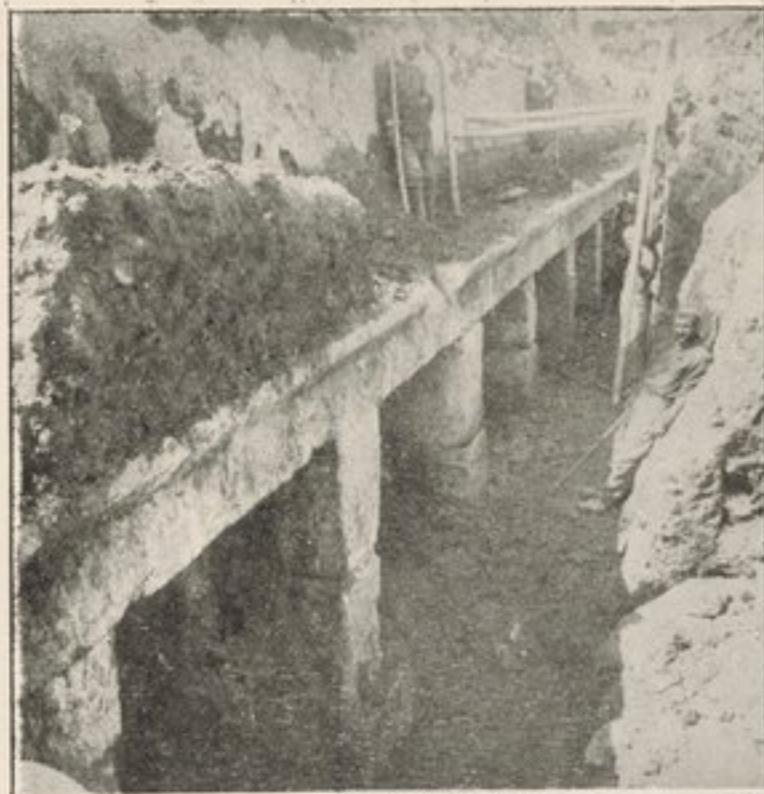


(اللوح ٤)

البَابُ الشَّرِقيُّ

هو الباب الوحيد الذي وصلنا من أبواب
دمشق السبعة في العهد الروماني وكان الناس
يتفدون منه إلى شارع المدينة المستقيم الذي يمتد
من شرقها إلى غربها . وكانت فتحته الوسطى تقابل
منتصف الطريق . وقد سدت هذه الفتحة والفتحة
الجنوبية في القرون الوسطى . ولم يبق إلا الفتحة
الشمالية ، التي تعلوها صفوف من أحجار السور العربي .
وسوية أرض هذا الباب أعلى من سويتها القديمة
ويرجع عهده إلى آخر القرن الثاني أو أول القرن
الثالث الميلادي .





(اللوح ٥)

القناة الرومانية

بنيت هذه القناة في العصر الروماني ، لما اتسعت
مدينة دمشق . وهي ما تزال تنقل الى قسم كبير
من دور و منشآت المدينة القديمة جدواً من الماء
ينفصل عن نهر بردى قبل أن يدخل دمشق .
وقد أظهرت أعمال بناء مطبعة الحكومة منذ سنتين
قسمًا من هذه القناة . ويرى هذا القسم في الصورتين
من اللوح (٥) . وهو متألف من مجرى حجري ،
يرتكز على دعائم مستطيلة تند على مسافات متساوية .

(اللوح ٦)

الشارع المستقيم

كان هذا الشارع يجتاز المدينة من الشرق الى الغرب ،
وعرضه (٢٥٩٢) متراً ، منها (١٣٩٦) متراً ، عرض (السكة)
و (٦٠١٢ أمتار) عرض كل من الرواقين المستورين ، اللذين كانا
يحدانه . وقد ظهرت عدة آثار منها قواعد وجدوع أعمدة
مختلفة دلت على اتجاهه القديم .

وابانت أعمال مديرية الآثار العامة ، منذ سنتين على بعد
٥١٨ متراً من الباب الشرقي ، الطرف الشمالي لقوس روماني ،
يتقى مع الرواق الشمالي من الشارع المذكور وترى دعامته
اليمني على الصورة الأولى من اللوح (٦) . وهي بسيطة وذات
قاعدة محددة . كما أنها أصغر من دعامته اليسرى التي تتألف
من كتلة ضخمة من الأحجار المنحوة ، المنظمة على شكل
تأنير سطوحه الواحد عن الأخرى ، وتضم نصف عمود محدد في
كل وجه من وجهيها . وهذه الدعامة هي الركيزة اليمنى للقسم
المتوسط من القوس الروماني الأصلي الذي يقابل (سكة) الشارع .



(اللوح ٧)

مَعْبُدُ جُوبِيرَ الدَّمْشِقِيِّ

أَنْشَىَ مَعْبُدُ (جُوبِيرَ الْمُحْسِنِ الْكَبِيرِ الدَّمْشِقِيِّ) فِي مَوْضِعِ مَعْبُدٍ (حَدَّدَ) الْقَدِيمِ ، فِي أُولَى الْقَرْنِ الْثَالِثِ بَعْدَ الْمِيلَادِ وَتَمَّ بِناؤُهُ فِي النَّصْفِ الثَّانِيِّ مِنْ هَذَا الْقَرْنِ وَكَانَ يَتَصَفَّ بِكُلِّ صَفَاتِ الْمَعَابِدِ السُّورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ . وَيَتَأْلِفُ خَاصَّةً مِنْ سُورِ خَارِجيِّ ، ابْعَادُهُ (٣٨٠ مِتْرٌ × ٣١٠ مِتْرٌ) ، وَيَتَنَدَّ عَلَى شَكْلٍ شَبِيهٍ بِمَنْحَرٍ . وَكَانَ يَحْيِطُ بِالْحَرَمِ الْمَقْدُسِ . وَلَهُ مَدْخَلٌ وَاسِعٌ فِي شَرْقِهِ وَغَربِهِ . وَيَؤُدي إِلَيْهَا شَارِعَانِ كَبِيرَانِ مِنْ شُوَارِعِ الْمَدِينَةِ ، بُنِيتَ أَرْوَقَةٌ عَلَى جَانِبِيهِمَا . وَقَدْ أُنْشِئَتْ عَلَى الْأَطْرَافِ الدَّاخِلِيَّةِ لِهَذَا السُّورِ سَلَسَلَةٌ مِنَ الْحَوَائِنِتِ الَّتِي كَانَتْ تَجْرِي فِيهَا الْأَعْمَالُ التِّجَارِيَّةُ . وَفِي دَاخِلِ السُّورِ الْخَارِجيِّ سُورٌ دَاخِلٌ مُسْتَطِيلٌ الْشَّكْلِ ، ابْعَادُهُ (١٥٥ مِتْرٌ × ١٠٠ مِتْرٌ) . وَهُوَ مُبْنَىٰ مِنَ الْأَجْجَارِ الْفَضْحَمَةِ ، وَوَجْوهُهُ الْخَارِجِيَّةُ مِنْ زِيَنةٍ بِرْكَائِزٍ . وَجَعَلَتْ أَرْبَعَةَ آبْرَاجٍ عَلَى زُواياِهِ . وَقَدْ أُسْتَخدِمَ تَخْطِيطُ هَذَا السُّورِ فِي بَنَاءِ الْمَسْجِدِ الْأُمُوَّيِّ . وَكَانَ لَهُ فِي شَرْقِهِ مَدْخَلٌ ضَخْمٌ . وَأَخِيرًا فَانْبَأَ بِنَاءَ مَكَانِ الْعِبَادَةِ الْمُسْمَىَ (سِيلَلاً) كَانَ يَقْعُدُ فِي مَنْتَصِفِ السُّورِ الدَّاخِلِيِّ . وَكَانَ يَحْوِي مَقْتَلَ جُوبِيرَ وَالْكَنُوزَ الْمُقْدَمَةَ إِلَيْهِ . وَيَرِبَّنَا اللَّوْحُ (٧) مِنْظَرًا جَانِبِيًّا لِمَا بَقِيَ مِنَ الْمَدْخُلِ الشَّرِقيِّ لِلْسُورِ الدَّاخِلِيِّ (بَعْدَ أَنْ أُصْلَحَ) ، كَمَا يَرِبَّنَا الْأَبْوَابُ الْثَلَاثَةُ لِلْجَامِعِ الْحَالِيِّ الَّتِي هِيَ أَبْوَابُ الْمَعْبُدِ الرُّومَانِيِّ .



(اللوح ٨)

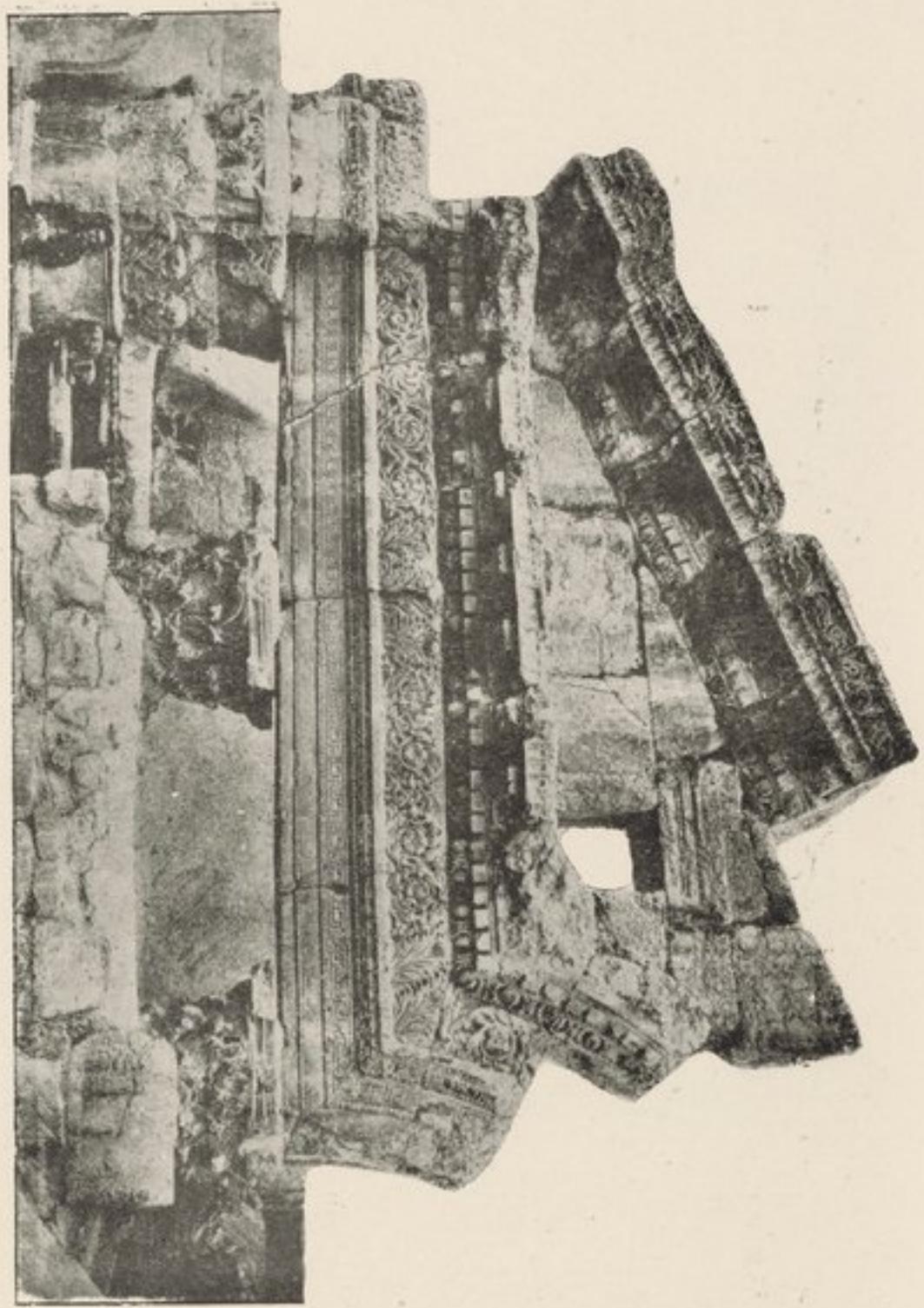
الجَبْهَةُ الْغَرْبِيَّةُ

ظن الباحثون الآثريون أن هذه الجبهة قوس للظفر في بادىء الأمر، ثم حسبوا أنها جزء من مدخل المعبد الغربي، وأخيراً قالوا عنها أنها شكل خاص من أشكال داخل سور المعبد الثاني الغربي. ومهما يكن فهي عنصر هام مما يبقى من سور معبد جوبيتر، وشكلها مثلثي، وهي ترتكز على دعامتين ضخمتين وعلى أربعة أعمدة كورنثية، ارتفاع كل منها (١١١٠ م).

ويلاحظ أن مركز الجبهة يتكون من قوس مستدير، وهذا الوضع نادر في الأبنية الرومانية، وهو لا ريب ابتكار دمشقي. أما زخارف قسمها السفلي ففنية جداً، وتتألف من عدة صفوف متعرجة منحوة. منها صفان من الزخارف البيضوية، يحيطان بصف من الزخارف النباتية والزهارات.

وفي أسفلها صف آخر من الزخارف المتعرجة، وصف من الزخارف ذات الأسنان في الأعلى، وفوقها صف من المحاريب الصغيرة، مرتكزاً على صناديق حجرية.

ولا تقل زخارف القسم العلوي من الجبهة عن زخارف قسمها السفلي؛ وتتألف من صفوف عائل الصناديق التي وصفناها معاً من الاختلاف.



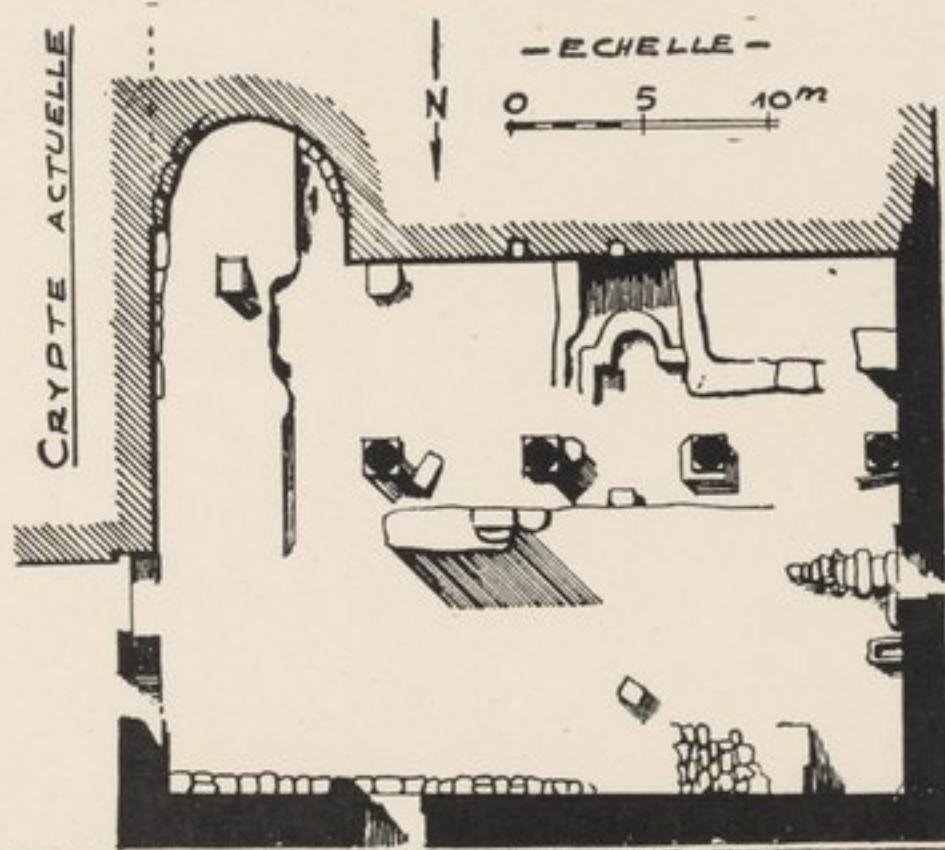
(اللوح ٩)

كنيسة القديس حنانيا

منذ عهد نساعم الامبراطور قسطنطين بدأت البلاد السورية
بناء عدد من الكنائس الضخمة الجميلة . وأشهرها كنيسة القيامة
في القدس ، و كنيسة الصعود على جبل الزيتون وكنيسة الميلاد ،
في بيت لحم والكنيسة الذهبية في انطاكية . وقد تبعها كنائس
عديدة خلال القرون الرابع والخامس والسادس . وأشهرها ،
دير القديس سمعان ، و كنيسة قلب اللوزة ، و كنيسة القديسة
هيلانة في حلب . وكان لها شأن كبير في تاريخ العمارة الدينية
السورية ، الذي بلغ حدًّا عظيماً من الكمال .

و كان يوجد عدد من الكنائس في دمشق خلال العهد
البيزنطي . ولكن لم يعثر فيها الا على بعض أطلال كنيسة
القديس حنانيا ، بين الباب الشرقي وباب توما جوار المكان
الذي تعلّف فيه لانه كان بيت القديس حنانيا . وقد أطلق عليها
العرب اسم (الكنيسة المصلبة) . و ظهر أنها بنيت مكاناً معبداً
وثنياً قديماً ، و أن بناءها جدد في زمن الوليد بن عبد الملك ،
وأن صلاح الدين الايوبي بني مكانها مسجداً .

CRYPTE ACTUELLE





دِمَشْقُ فِي زَمِنِ الْأُمُوَّيِّنَ وَالْعَبَاسِيِّينَ

ابتدأ العرب بالهجرة إلى بلاد الشام قبل ظهور الإسلام بدة طويلة . وكانوا يقصدونها لحسب أراضيها ووفرة حاصلاتها . ومن القبائل التي هاجرت إليها الفاسنة واليمنيون والقبسيون الذين أقاموا في مناطق متعددة منها في تواريخ مختلفة ، وتأثروا من الحضارة البيزنطية التي كانت منتشرة فيها . وكذلك كان ياتجدها بقوافلهم تجار شبه جزيرة العرب الذين كانوا متخصصين في تجارة الشرق الأقصى . فيزورون دمشق ، ويتصلون بأهلها ، ويصادقونهم ، ويعجبون ببساتينهم الغناء . ثم يعودون إلى بلادهم وهم يحملون في خيالاتهم عن غنى دمشق وخصبها صوراً رائعة ، سبکها شعراً في آيات بينات من الأدب الخالد .

ولما ظهر الإسلام تدفق أعراب الجزيرة إلى بلاد الشرق الأدنى ، وهاجروا الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية ، اللتين كانتا من صراعتين إلى صراع مستديم نشب بينهما منذ مدة طويلة . وجعلوا يتسعون على حسابها . ولم تمض مدة قليلة حتى حدث انقلاب تاريخي كبير في هذه البقعة من الشرق . وفتح فصل جديد في التاريخ العالمي ، وعبدت الطريق أمام المجد العربي الناشئ . وقد هزم خالد بن الوليد تيودور قائد هرقل ملك الروم في موقعة اليرموك الحاسمة . وزحف على دمشق وحاصرها ، هو وأبو عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبي سفيان . وسقطت المدينة في سنة (١٤ = ٦٣٦ م) . وكان سقوطها فاتحة لسقوط بقية المدن السورية الواحدة بعد الآخر .

وترك العرب السوريون المسيحيون خلال ذلك نصرة البيزنطيين . وانضموا مدفوعين ، بعاطفة التعاطد العرقية ، إلى العرب المسلمين ، الذين أخذت جيوشهم المظفرة تحمل أقطاراً كثيرة واسعة في القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا . وكانت توسع هذا العرق الشاب القوي في العالم القديم معجباً حقاً . إذ أن البحر الأبيض المتوسط غداً تقريباً ، بحيرة عربية خلال مدة قليلة من الزمن . وأصبح طرفاً الملال ، كما قال أحد مشاهير مؤرخي الغرب ، في (كاسغر) من الصين شرقاً ، وفي (بوتبي) من فرنسا غرباً .

ولقد لعبت دمشق في ولادة هذا العالم الجديد دوراً كبيراً . إذ أنها أصبحت عاصمة لسلالة الامويين منذ سنة (٤١ = ٦٦٠ م) . وأضحت المركز السياسي والديني والثقافي لأمبراطوريتهم الواسعة . وجعل العرب يتقاطرون إليها من كل حدب وصوب ، ويجلون في الدور التي فارقها البيزنطيون لغير رجعة ، وبأنفاسه مع سكانها الذين أسلموا ، أو الذين ظلوا على نصرانיהם . وعددهم هؤلاء كمن قذن ما كان ينتابهم خلال الحكم البيزنطي من جور وتعسف في أموالهم وعقائدهم الدينية ، التي كانت لا تتفق مع عقائد الكنيسة البيزنطية الرسمية . وراحوا يساهمون وإياهم في إيجاد المؤسسات الالازمة لتأمين قوة الامبراطورية الاموية وتأسكتها . وكانت معاوية وهو أحد أفراد العباشرة السياسيين العرب في كل الأزمان ، المؤسس الأول لمجد دمشق . وقد نشر التسامح الديني ووافق بين سكانها الجدد والقدماء ، وبأ عدد كبيراً من هؤلاء مناصب عالية في الادارة والمالية ، ومنهم يوحنا الدمشقي الذي خدمه كما خدم عدة خلفاء بعده بأخلاق ونشاط . وهكذا نشأ توازن مكين في المجتمع العربي ، أضيف إلى قوة الامبراطورية ورخائها الاقتصادي ، الناشئ عن وضع الامويين أيديهم على اقتصادات البحر المتوسط . وهذا ما هيأ المجال لولادة الفن العربي في دمشق ، وتغيير جميع الاشكال الفنية ، التي عرفتها المدنities السابقة بأشكال جديدة لها نظارة الشباب وجماله .

وقد استوفى فن العمارة العربي في دمشق جميع الصفات التي اختص بها فيما بعد . ومنها جعل المياه غزيرة في المدينة ، والاكتثار من حدائقها ، والعمل على تقسم أسواتها حسب اختصاص أصحاب المهن ، ويلاحظ أن هذه الصفة الأخيرة لم تظهر إلا فيما بعد . أما الصفتان الاولى والثانية فقد تبدلتا بوضوح تام في زمن الامويين .

ولا يخفى أن هذا العصر قد ورث من العصور القديمة جهازاً كاملاً لسقاية المدينة وري غوطتها . فعمل الخلفاء الامويين على إقامته وإكماله . ومنهم يزيد الاول بن معاوية الذي شق في كتف الجبل نهرآ ، حمل المياه الى الاراضي العالية . ووسع مساحات الحقول المزروعة ، وساعد على إيجاد قرى جديدة . وعملت الاجيال بعده في توزيع المياه على كل أحياء المدينة وبيوتها وقصورها وجوانبها . حتى

أصبح الماء يشاهد في كل مكان من دمشق . وقد قال أحد الغربيين الذين زاروا سوريا ، وكتبوا عنها منذ مدة قريبة ، إن دمشق ظمآن وهي تنبع ظمامها فتضع شفتيها على مياه بردى الواطنة ، فتعبر منها وتنهل بشغف ولذة . ويلاحظ أن الفن العمري أفاد من استخدام الماء أكبر فائدة ، وواثم بيته وبين فن العبارات المبنية بالاحجار المنحوتة الذي استهرت به دمشق منذ أقدم الازمنة . وجع تأثيراتها حتى صار هذا الانسجام أكثر صفات دمشق العمريّة لصوفاً بها .

ونتج عن هذه الجهد الakanar من بساتين دمشق الضاحكة وحدائقها ، في كل مكان ، واسع الحقول الحضراء حولها . وغدت هذه كما يقول فيها ابن جبير تحيط بها كما يحيط الكأس الزهرة ، والهالة القمر . إنها شامة الجمال في الدنيا وجنة الأرض في أرضه . وتنقل إلينا ألواح الفسيفاء في المسجد الاموي الذي يرجع عهده صنعها إلى هذا الزمن صوراً رائعة عن تنظيم عبارات المدينة ضمن الحقول التي يحيط بها الماء من كل جهة .

ويظهر أن رقعة المدينة وتقسيماتها إلى ساحات ، وشوارع منتظمة ، وجزيرات مستطيلة كانت في العصر البيزنطي كما كانت تماماً في العصر الروماني . وقد عمل الامويون بدورهم على ابضاخ مفاهيمهم الخاصة في تنظيم العبارات التي يجب ان تضمها المدينة . فأوجدوا فيها منشآت جديدة . وبدأ فن العماره الاسلامية بداية قوية ، وأصبح فيها فناً أميراً طورياً رائعاً . ونشأت فيها مدرسة فنية دعاها المؤرخون بحق : (المدرسة السورية - المصرية) ، التي امتدت تعاليماً إلى بقية البلاد العربية ، وترك آثاراً مختلفة فيها . ولا يخفى أن فن العماره خادم للدين منذ أقدم الازمنة ، وأنه يسعى دوماً لتحقيق ما يعتاج في نفوس المتعبدين من رغبات ، وأنه يتطور في البنية التي يحدتها حسب حياة المجتمع ، وحسب الطابع الذي تنشرها كل مدينة من المدن . وقد أوجدت الديانة الاسلامية نوذج المسجد لكي يكون مكاناً لاصلاة ، ومرتكزاً لحياة المسلمين العامة ، حيث يتعرف فيه الخليفة على أفراد رعيته ، ويقام العدل بين الناس ، ويحفظ مال المسلمين .

واستخدم المسلمون في أول حياة المجتمع الاسلامي بيت النبي (صلعم) مسجداً تقام فيه الصلاة . وبنى عبد الملك بن مروان مسجدي عمر والافصي في مدينة

القدس . وتألف مع الزمن منهج منطقي للأقسام المختلفة التي يجب أن يجوحها المسجد .
ثم قضت الضرورة أن يبني مسجد كبير يليق بعظمة الامميين في دمشق .
وقام الوليد بن عبد الملك لتجقيق هذا المشروع بمحاس فائق . وقد أرضي مسيحي
دمشق بالتنازل للمسلمين ، عن قسم كنيسة القديس يوحنا المعمدان الغربي ، الذي بقي
في أيديهم ، بعد انت حول قسمها الشرقي إلى مسجد بعد الفتح العربي . وذلك
مقابل اربع كنائس منهم حق العبادة فيها . ويقال إنه كان أول من قام بهدم
البناء القديم . فبدأ بذلك أعمال تشييد المسجد التي استمرت نحو عشرة اعوام .
وساهم فيها ألف من العمال المختصين جعوا من أطراف الولايات العربية .
ويحدثنا ابن جبير فيقول إن تكاليف البناء بلغت ، أحد عشر مليوناً ومائتي ألف
دينار . كما يقول فيه باقرت الهوي في «معجم البلدان» : «إذ الوليد أنفق على
عمارته خراج المملكة سبع سنين ، وحلت إليه الحسابات بما أنفق عليه على ثانية
عشر بغيراً فأمر بحرافها ، ولم ينظر فيها ، وقال هو شيء آخر جاءه الناس فلم نتبعه» .
ولما انتصب بناء المسجد في أرض دمشق كان آية الآيات . حتى ان أحد
مؤرخي دمشق الفربين المتاخرین قال فيه : «إنه لم يكن فحسب اعظم آبدة
قامت في ارض الاسلام حتى ذلك الوقت ، بل إنه أحد ابتكارات فن البناء
العالمي في كل الازمان وفي كل البلاد» . ودهش من مشهد المعجب كل من
رأه منذ زمن تشييده حتى عصرنا الحاضر . وقد قال فيه ياقوت أيضاً : «ومن
عجباته انه لو عاش الانسان مائة سنة ، وكان يتأمله كل يوم ، لرأى فيه كل يوم
ما لم يره في سائر الايام من حسن صناعة واختلافها» .
وتكللت أيضاً المنشآت المدنية في دمشق . وليس لدينا إلا بعض النصوص
التاريخية التي نذكر لنا لحة عن قصر الحضرة الذي بناه معاوية في جنوب سور
المسجد القديم ، وعن القصور التي انشأها سليمان وهشام بن عبد الملك ، وعمر بن
عبد العزيز . وكذلك فانتا نجهل كل شيء عن المشافي والملاجئ التي بنيت في
دمشق وافت تنظيماتها العمرانية . ويحدثنا المؤرخون أيضاً على ان الوليد اقام
للنارات في الطرق ، وحفر الآبار ، ونظم العمran وشيد المساجد . فكان بذلك من

مؤسس فن العمارة والبناء العربي ، وخير مثل احتذاه افراد رعيته في بناء منازلهم الخاصة ونجعلها .

* * *

وثار العباسيون سنة (١٣٢ = ٧٤٩ م) ضد الامويين واجتاحتوا بلاد الشام ، وتلوا عرش أعدائهم ، ودخلوا دمشق وهدموا قصورها ، ونقلوا العاصمة الى العراق . ولا ريب ان المدينة العربية تقدمت تقدماً رائعاً في عهدهم ، إلا أن دمشق لم تعد تتمتع بالمكانة الممتازة التي كانت لها حتى هذا التاريخ .

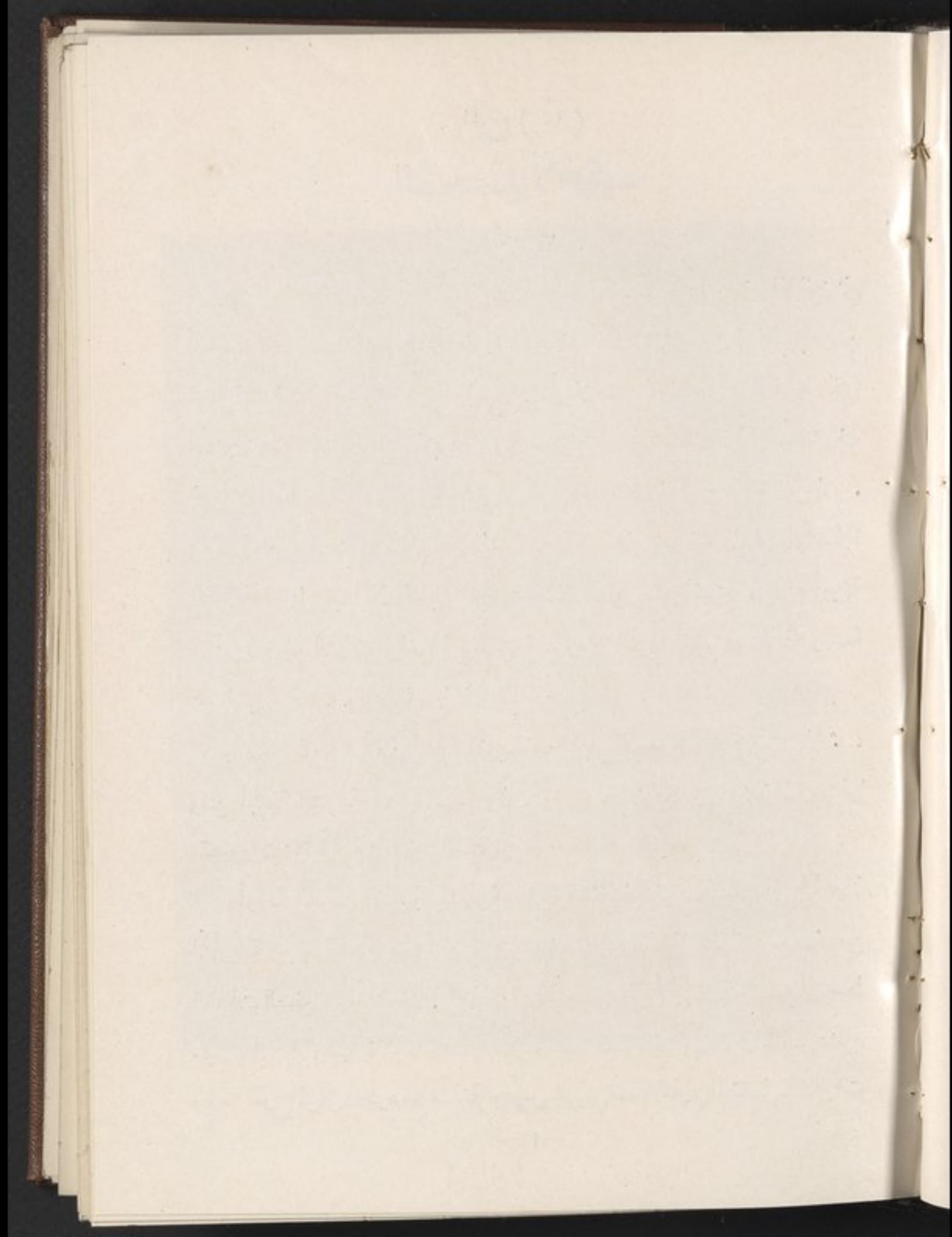
ومع ذلك فان العباسيين لم يتخلوا تماماً عنها . لأنهم أدركوا ما لها من شأن خطير ، كحاضرة من أكبر حواضر دولتهم . فجعلوا يرسلون إليها خير ولاهم . كما ان هارون الرشيد وابنه المأمون كانوا يأتيان إليها طلباً للصحة وحسن المنظر . وقد قام الثاني بعدة أعمال عمرانية فيها ، منها أنه أجرى قناة من نهر منين الى دير مران ، وبنى القبة في أعلى جبلها ، وجعلها مرفقاً . وشيد قصراً في جنوبها قرب داريا .

ثم عاشت دمشق خلال ثلاثة قرون تحت حكم الدول الطولونية والاخشيدية والفاطمية ، في عهد سداده وحلته الفوضى واخطراب حبل الامن ، والحروب المستمرة . فنشأ عن ذلك تضعضع تنظيمها المدنية ، ونشوء الحياة الاقطاعية في حاراتها المتلوية ذات المداخل الضيقة ، التي ظهرت بدلاً عن الجزرات القديمة المستطيلة . وكانت كل حارة من هذه الحارات تشبه قرية ، لها مركز تجاري ، وأعضاء رئيسية كالمسجد والحمام والمقهى . وأخذت الأسواق وما تحويه من دكاكين للتجار والصناع ، تتألف وتحجّم حسب اختصاص كل طبقة منهم ، كما ذكرنا ذلك سابقاً . كما شيدت فيها خانات كانت الغاية منها تنظيم تصدير البضائع واستيرادها . وأخيراً نشأت فيها أحيا خارجية تتصف بصفات مدينة وفروية على السواء . ومنها حي العقبة في شمالها وهي الشاغور في جنوبها .

وحلت في هذا العهد على دمشق مصائب كثيرة منها الطريق العظيم الذي حدث في المسجد الاموي سنة (٤٦١ = ١٠٦٨ م) ، وأنق عليه بكلمه ولم يبق منه قائماً سوى جدرانه . ثم رمم في العهد السلجوقي التالي .

ولم تترك لنا هذه العبرة الأخيرة من الأبنية الأثرية شيئاً يذكر ، اللهم إلا ضريح فاطمة بنت أحمد بن الحسين ، وتاريخه سنة (٤٣٩ هـ = ١٠٤٨ م) . وهو موجود تحت قبة في مقبرة (الباب الصغير) . ويمثل روعة الفن الفاطمي في الكتابة الكوفية المشجرة . إذ يلاحظ أن الأوراق والعروق النباتية تخرج من الحروف كما تبدو الأزهار من الأواني التي وضعت فيها ، ثم تستطيل وتتعرج وتنحدر حول الزخارف الخطية البارزة من سطح مستوى منحوت بدقة شديدة .

وبقيت أيضاً كتابتان كوفيستان على جسر (ثورا) باسم الإمام المستنصر بالله . وأولاهما من سنة (٤٤٢ هـ) والثانية من سنة (٤٥٦ هـ) .



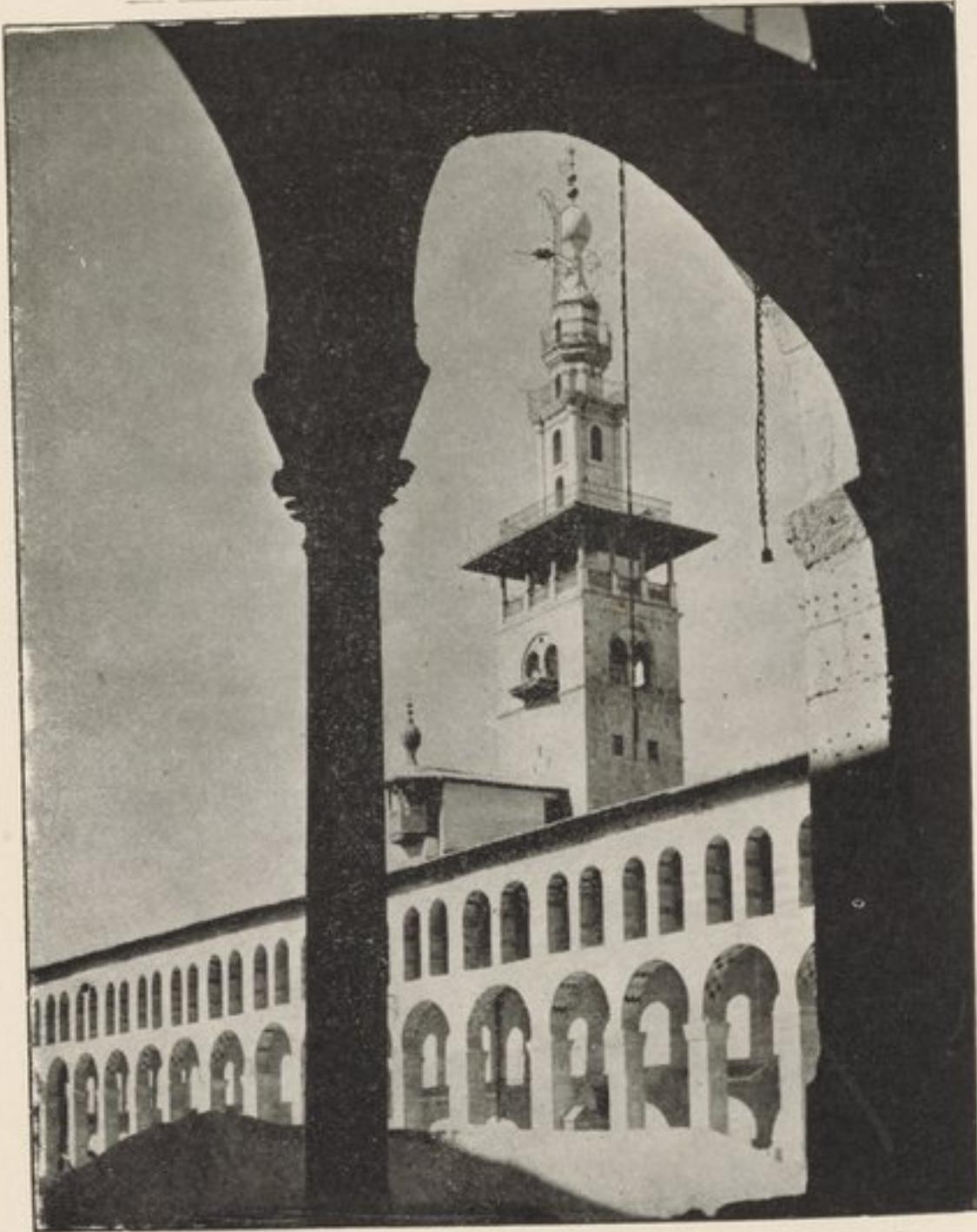
اللوح (١٠) المَسْجِدُ الْأَمْوَي

الصحن

في الجامع الاموي كله في زمن الوليد ، خلافاً لما يدعوه بعض المؤلفين في أن عبد بعض أقسامه يعود الى ما قبل الاسلام . اذ أنه لم يدخل في المسجد من البناء القديم الا الجدار الخارجي والابراج . ويلاحظ أن مخططه هو المخطط الذي أنشئت عليه المساجد الاسلامية الاولى . وينص على تنظيم فراغ مكشوف ضمن بناء مشيد . ولاريب أنه مستوحى من دور العرب في زمن ظهور الاسلام . ولا سيما من بيت النبي (صلعم) في المدينة ، الذي كان يقيم فيه المسلمون الصلاة المشتركة . وعلى هذا فان المسجد الاموي يتالف من صحن فسيح ، تحده أروقة من جهاته الشمالية والغربية والشرقية ، ومن الحرم الذي هو قاعة واسعة محولة على عمد ، وقائمة في طرف الصحن الجنوبي .

ويدخل الزائر اليه من الجهة الغربية من (باب البريد) وله فتحات ثلاثة ، ومن الجهة الشرقية من باب جiron . ووراء هذين البابين دهليزان حوالهما مقصورات متبقية من البناء القديم .

وأروقة الصحن الغربية والشمالية والشرقية مغطاة بسقوف تستند على الجدران الخارجية من جهة ، وعلى ركائز واعمدة متعددة من جهة ثانية . وفوق هذه صفين الطاقات الصغيرة . ويلاحظ ان الرواق الشمالي يستند على ركائز فقط في قسمه المتوسط حيث يقابل باب العماره ، وما ذلك إلا لأنه أعيد انشاؤه في اول القرن الخامس عشر . ويرينا اللوح المرفق منظره مع مئذنة العروس . التي هي قسمها العلوي المضلعل في ذلك الوقت .



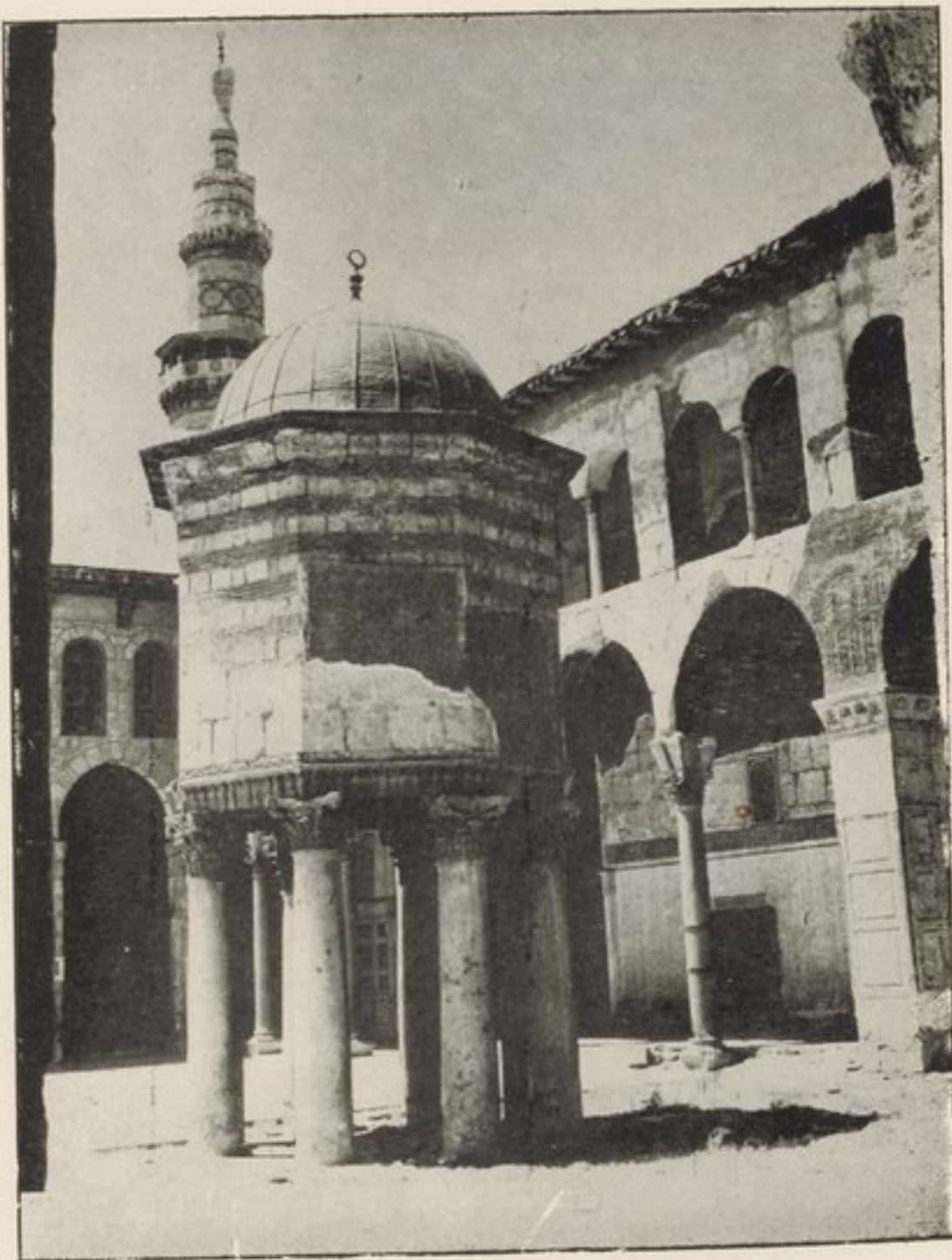
(اللوح ١١)

قبة الخزنة

بني هذا البناء الصغير ذو الشكل المثمن ، ليوضع فيه مال الدولة . وهو يستند على خانة أعمدة ، غارت أقسامها السفلية في أرض الصحن وهي تحمل تيجاناً كورنثية فوقها افريز يشبه الافاريز الرومانية . وفوق البناء قبة صغيرة من الرصاص ، يبلغ

ارتفاعها عن سطح الأرض (٩٦٩٥ م)

ويلاحظ أن طريقة بناء جذع قبة الخزنة تشبه الطرق المعهودة في بناء المنشآت البيزنطية . أي أن صفوف الأحجار المنحوة تتعاقب فيه مع صفوف الأجر . ويقول المقدسي إنها كانت مستورة بالفسيفساء ، كما أن ابن جبير الاندلسي يتحدث عنها فيقول إنها كانت مزخرفة بالقصوص والأصبغة الملونة ، كما أنها الروضة حسناً ، ولم يبق من هذه الفسيفساء إلا بعض آثارها المشوهة وينسب أبو البقا بناءها إلى الوليد بن عبد الملك . أما العموي فإنه يقول إنها بنيت بأمر الفضل بن صالح بن علي ، حاكم دمشق العاسي في سنة (١٧٢ هجرية = ٧٨٨ ميلادية) ،



(اللوح ١٢)

البلاطة الوسطى في المسجد الأموي

تقع البلاطة الوسطى من الجنوب إلى الشمال وقسم حرم المسجد إلى قسمين متساوين تقرباً . وتألف واجهتها الخارجية من فتحة وسطى ، فوقها ثلاثة أقواس محمولة على سويريات ذات تيجان كورنثية وفوقها أقواس أصغر منها .

ونجد هذه الفتحة من كل جانب ركيزان غليظتان ، سمك كل منها (٢٠٣٥ م) . وها تحملان أثقال أقواس المسجد الداخلية .

أما سقف البلاطة المذكورة فهو عمودي على سقوف البلاطات الداخلية المستعرضة . وتعلوه في وسطه قبة اسمها (قبة النسر) ، أعيد إنشاؤها على غير شكلها الأصلي بعد احتراق المسجد سنة ١٨٩٣ م . وحولها أقواس مدوراة مجتمعة حول ركيزتين . ويلاحظ في يسار اللوح المرفق في الطرف الجنوبي الشرقي من المسجد (مئذنة عيسى) التي يعود عهد إنشاؤها إلى القرن الحادي عشر . وهي مبنية شأن المئذنة الغربية التي شيدت في القرن الخامس عشر على برجي البناء القديم .

وهناك مئذنة ثالثة وهي (مئذنة العروس) التي بناها الوليد ؛ وأعيد بناء قسمها العلوي في القرن الحادي عشر .

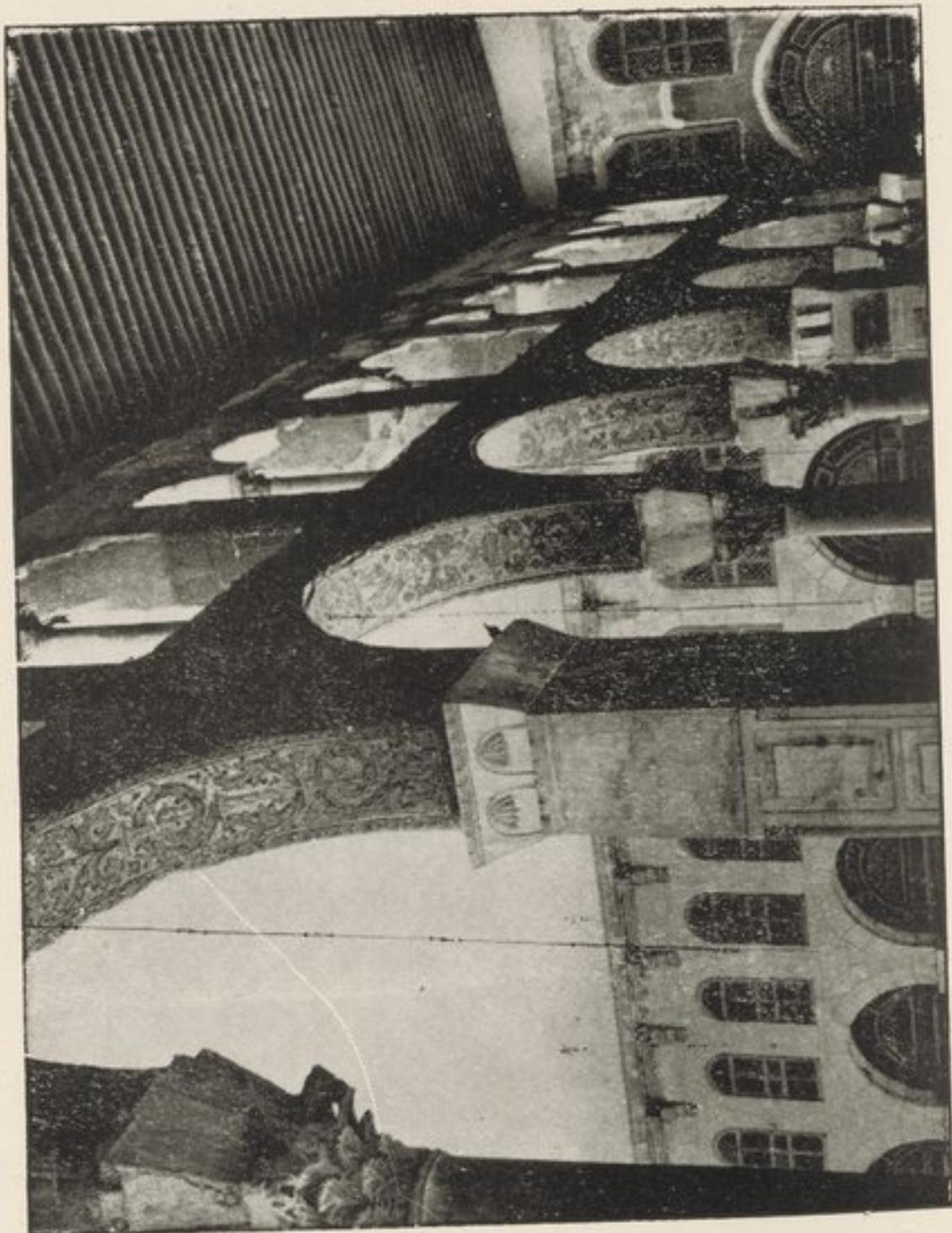


(اللوح ١٣)

فَسِيفَسَاءُ الْمَسْجَدِ الْأَمْوَيِ

زين هذا المسجد في زمن الوليد بفسيفساء جميلة . دقة الصنع
ثم طليت هذه الفسيفساء في زمن من الأزمان بطبقة من الكلس
لم تنزع عنها إلا في سنة ١٩٢٧ وقد صنعت من مكعبات زجاجية
صغريرة ملوونة ومذهبة ومن قطع من الصدف . ونضدت على أشكال
تثنيل مناظر طبيعية مختلفة . ويشاهد فيها أيضاً عدداً من العبارات
خلال حدائق غناه . ولا ريب أنها تثلل لنا صور دمشق وقرابها
وغيرها من المناطق والبلاد الأخرى التي منها مكة المكرمة ، وذلك
كما عرفها العصر الاموي . وقد أحيرت بأشجار باسقة تعلوها
الاثمار والأزهار .

وتختد هذه الفسيفساء حتى على سطوح الأقواس . ويشاهد
في الصورة المرفقة ، على استدارات أقواس الرواق الغربي ، عدد
من شوكلات اليهود (آكانت) تخرج ورقاتها وكؤوسها من الأواني
أو قرون الخصب ؛ ثم تتد على شكل منحنيات بدعة أو أغصان
يعلو بعضها ببعض .



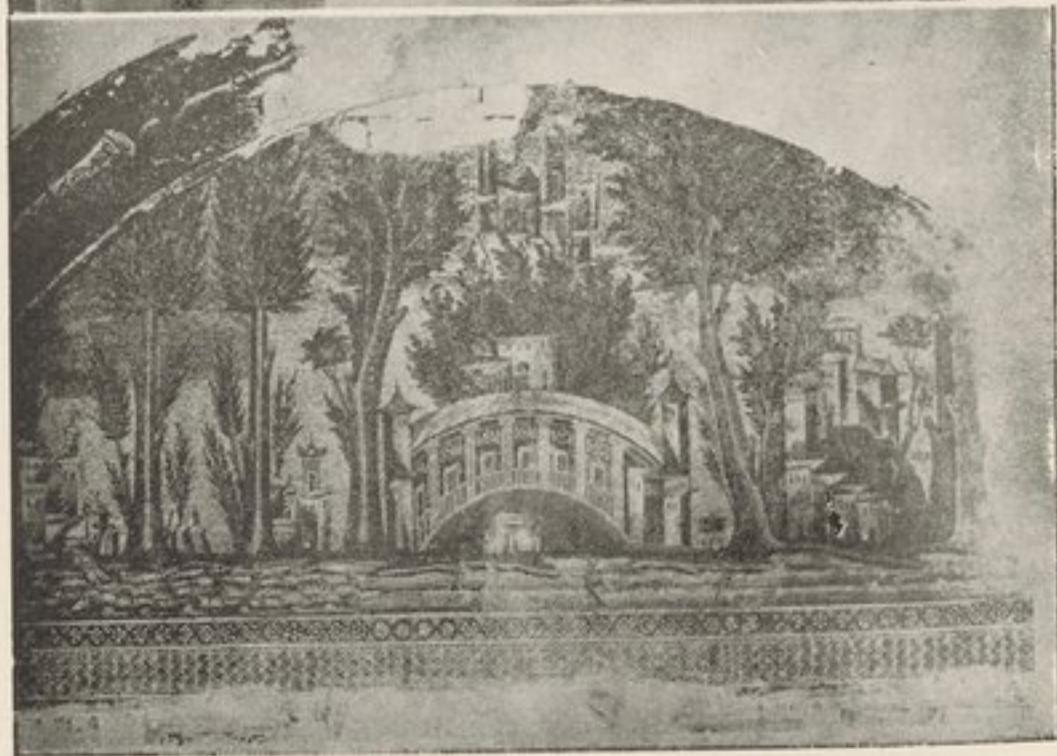
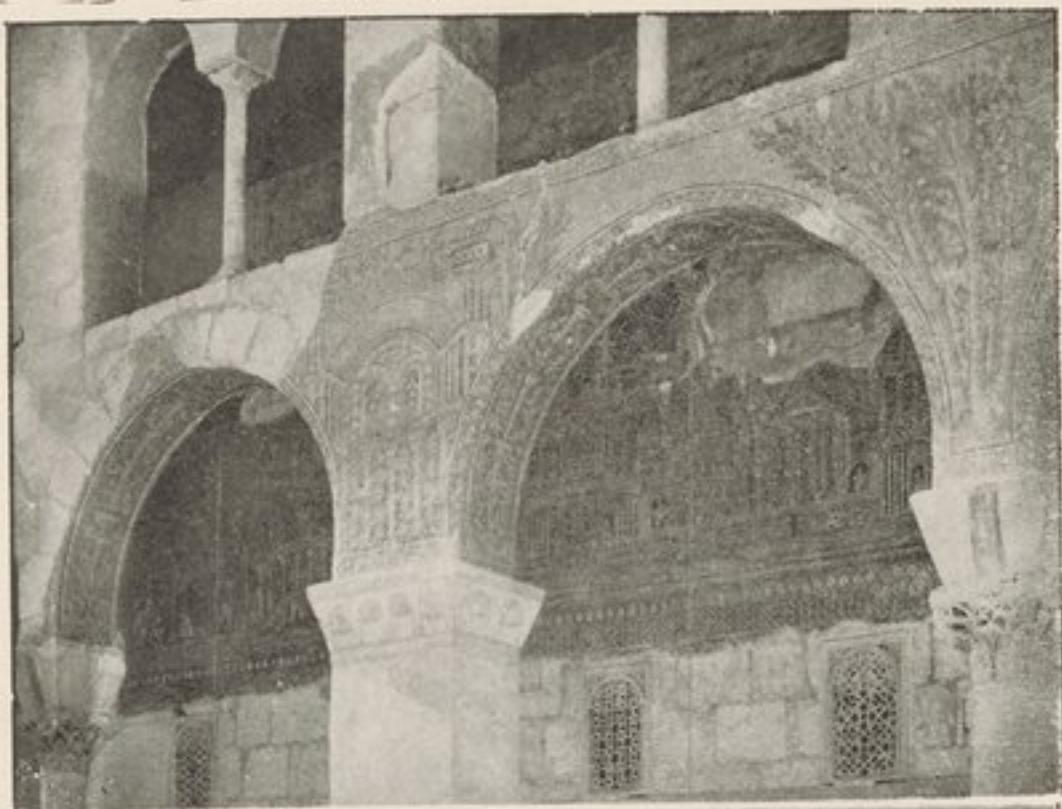
(اللوح ١٤)

فَسِيفَاسِيَّةُ الْمَسْجَدِ الْأَمْوَى

لقد زين جدار الرواق الغربي في المسجد الاموي كما هو واضح في الصورة العلوية ، بلوح كبير من الفسيفساء ، يمثل صورة رمزية لبعض أبنية دمشق في العصر الاموي ، وهي محاطة بيساتيتها الخضراء ويرى نهر بردى قبل أن يدخل المدينة . ويلاحظ أن مياه هذا النهر هائجة صاخبة في طرف الصورة ، ثم تهدأ تدريجًا لما تجتاز العاصمة . كما يشاهد أن دمشق محاطة بقرى صغرى لها أشكال مخروطية ، ومبنيه على مرتفعات ، أو منتخبة في ظلال الأجراث . وفي صدر لوح الفسيفساء أبنية كبيرة فخمة . تحيط بها غابة أشجار باسقة نبتت على شاطئ النهر .

ويلاحظ في السطح الاول الواقع بين قوسين من هذا الرواق ، بناءان لها سقفان مديان ، ومن بناه بعروق نباتية ذهبية ، ودرابزين مصرية . ويشاهد في السطح الثاني بين أقواس هذا الرواق وهو ظاهر في الصورة السفلية من اللوح (١٤) بعض الابنية الدمشقية الاخرى ، وهي مغطاة بسقوف مستوية أو مدببة ، محمولة على ركائز حديدية . ويبطن أن البناء المتوسط المبني على شكل نصف دائرة هو واجهة ملعب للخيول ، كان في زمن الامويين في دمشق وهو غير دار للخيول التي كانت بالقرب من قصر الخضراء .

اما بقية سطوح الأقواس فيوجد عليها زخارف نباتية وعمارات أخرى .



(اللوح ١٥)

الحرم في المسجد الأموي

وقد جدد داخل الحرم بعد الحريق الذي أصاب المسجد سنة ١٨٩٣ م . ويبلغ طوله ١٣٦ متراً ، وعرضه ٣٧ متراً . وهو مقسوم إلى ثلات بلاطات بواسطة صفين من الأقواس ، موازيين للجدار الجنوبي ، ومحولين على أعمدة مصرية ، لها تيجان كورنثية . وفوق هذه الأقواس الأخرى التي تحملها سوريات صغيرة .

ويحد الحرم من طرف الصحن سلسلة أخرى من القناطر التي سدت فرجاتها بأخشاب جميلة وتفطيه ثلاثة سقوف لكل منها منحدران . وتعترض هذه السقوف البلاطة المتوسطة ، فتقسمها إلى قسمين متساوين .

ويرى في الصورة العلوية ضريح النبي يحيى (عليه السلام) وشكله صریع ، وفوقه قبة وبناوه غير قديم .

ويلاحظ أن حرم المسجد يؤيد ما ذهبنا إليه ، وهو أن بناء المسجد كله من عمل الوليد . إذ أن مخطظه ، وطوله ، وانقسامه إلى ثلات بلاطات متساوية ، واتصاله بالصحن ، لا تجعله شبيهاً بأي بناء سوري في العهد البيزنطي . كما أن المؤرخين المسلمين والمسيحيين مجمعون على أن الوليد هدم كنيسة القديس يوحنا ليبني مسجده في موضعها .

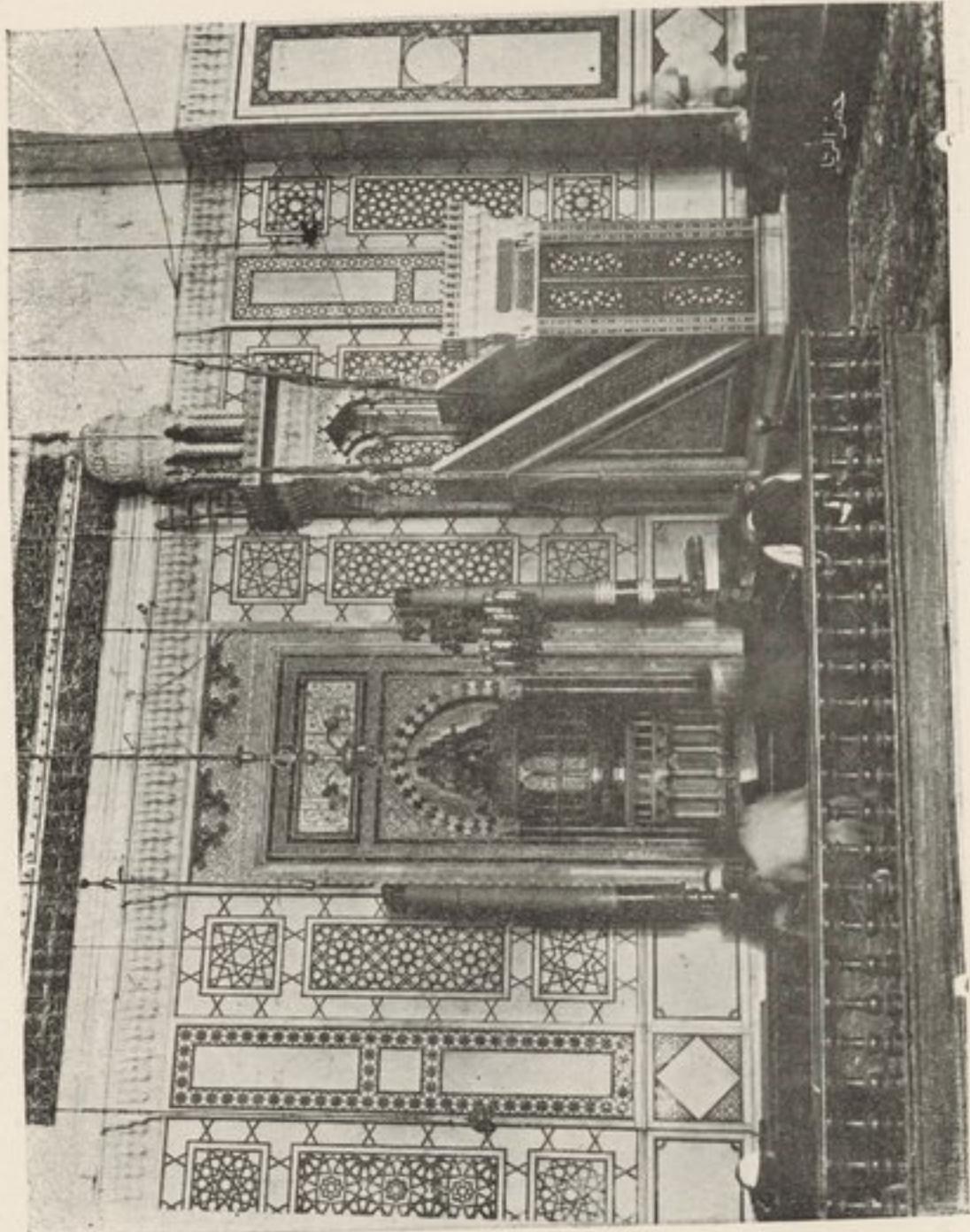


(اللوح ١٦)

مِحَرَابُ الْمَسْجِدِ الْأَمْوَى

ويوجد في الجدار القبلي من الحرم أربعة محاريب ثلاثة منها قديمة . وهي محراب الصحابة في الطرف الشرقي ، والمحراب الكبير في الفرجة الغربية من الباب الثالث في السور القديم ، والمحراب الخفي الذي جدد سنة (١٣٢٨ م) في الطرف الغربي . أما المحراب الرابع ، وهو في أقصى هذا الطرف خديث . ويلاحظ أن محوري المحرابين الأوليين يتفق مع محور البلاطة الوسطى .

ويرينا اللوح (١٦) المحراب الكبير المرسم أبدع ترخيم ، والمرصع بصفوف من الصدف والمرمر الملون ، قد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب ، وجعلت على ألواح مستطيلة منسقة .

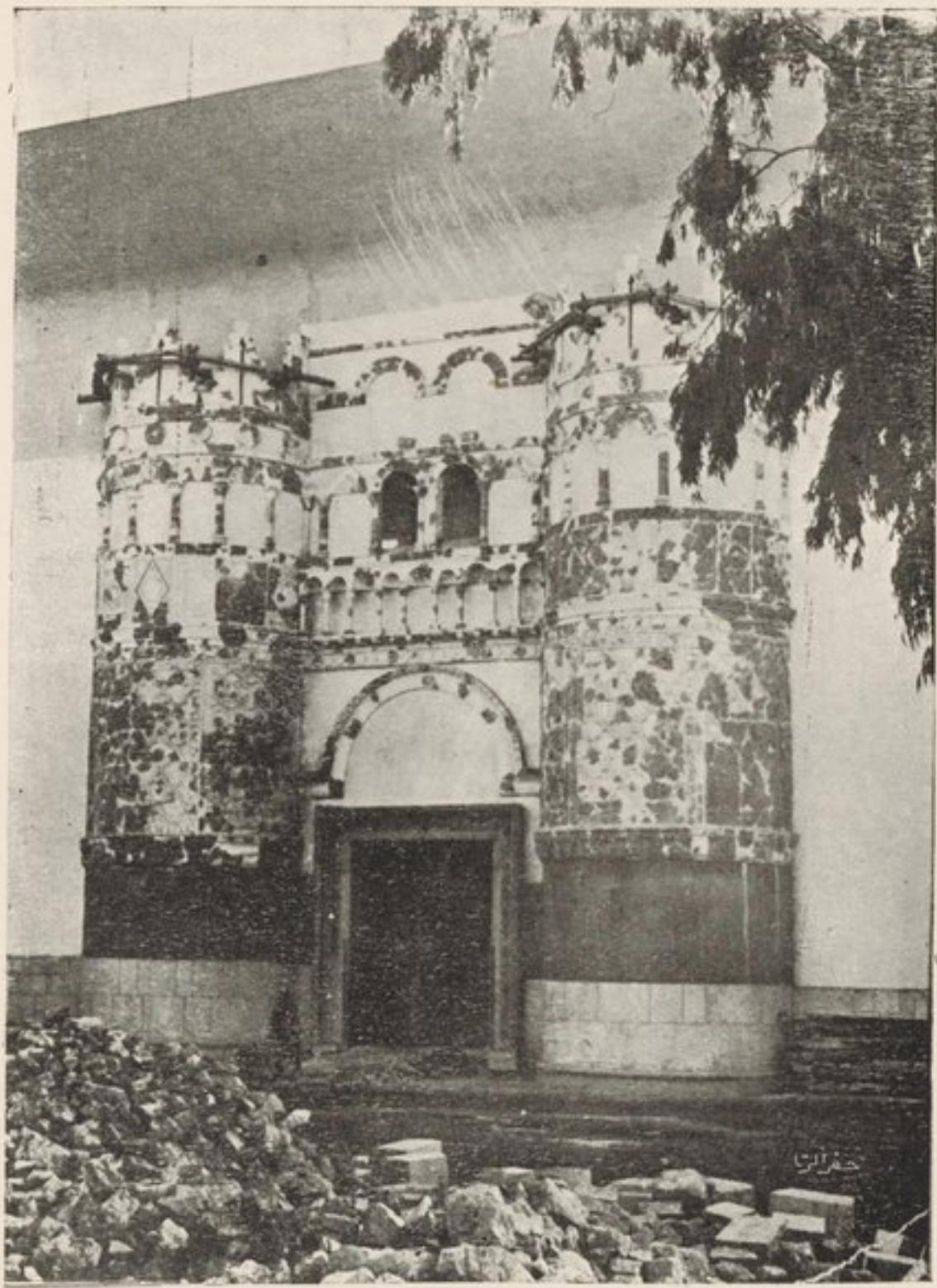


قصر الحير الغربي

لقد حرمنا العباسيون بتهذيبهم قصور الأمويين في دمشق من وثائق صحيحة ملموسة ، تدلنا على فن المعاشرة المدنية الأموية الدمشقية . غير أن المكتشفين الأوربيين تكثروا من العثور في باديه الشام ، على خرائب وأطلال ثلاثة قصرًا أمويًا قدّمت لعلم الآثار معلومات ثمينة عن الفن المذكور .

ولا يخفى أن الخلفاء الأمويين احتفظوا بطبعتهم العربية ، وخلوا يخونون إلى الصحراء ويتشوّدون إلى حياة التبدي . لهذا فإنهم كانوا يتذرون دمشق عاصمتهم بين حين وآخر إلى الباشية لينعموا بلذة الصيد ، ويتلقوا اللغة الصحيحة عن السنة أصحابها ، ويلتقوا بزعماء القبائل العربية ، ويتبعدو عن تكشف المدينة ، ويستسلموا إلى حياة الانس والدعة .

وهذا ما دعاهم إلى إنشاء القصور المتقدمة في الباشية . وأكملها قصر الحير الغربي الذي يقع على طريق دمشق ، بين القرىتين وتدمر في واد ينبعه السيل ، وقناة من الماء تتصل بسد حربقة (على بعد ١٥ كيلومترًا) ، ويعود عهد إنشاؤها وإنشاء السد إلى العصر الروماني . وقد بني القصر هشام بن عبد الملك ، وجعله مركز منطقة استئثار زراعية . وكان يوجد إلى جانبه خاز وحمام ، وشكله مربع تقريباً (٧٠ × ٧٠ م). وله أبراج نصف مستديرة في زواياه وجوانبه ، ويحوي في داخله حول باحة مربعة مكشوفة ، ستة بيوت ، في كل منها قاعة كبيرة مستطيلة متوسطة ، وعلى جانبها عدة غرف صغيرة . وتستند هذه البيوت كلها على جدران القصر من الداخل . ويلاحظ أن هذا النموذج من البناء ، يستوحى أصوله وقواعد من عناصر الأبنية السورية والساسانية المعروفة قبل هذا العصر . ويوّل夫 ابتكارًا أمويًا سوف يبني سكان الشرق دورهم على نوذجه خلال مدة طويلة .

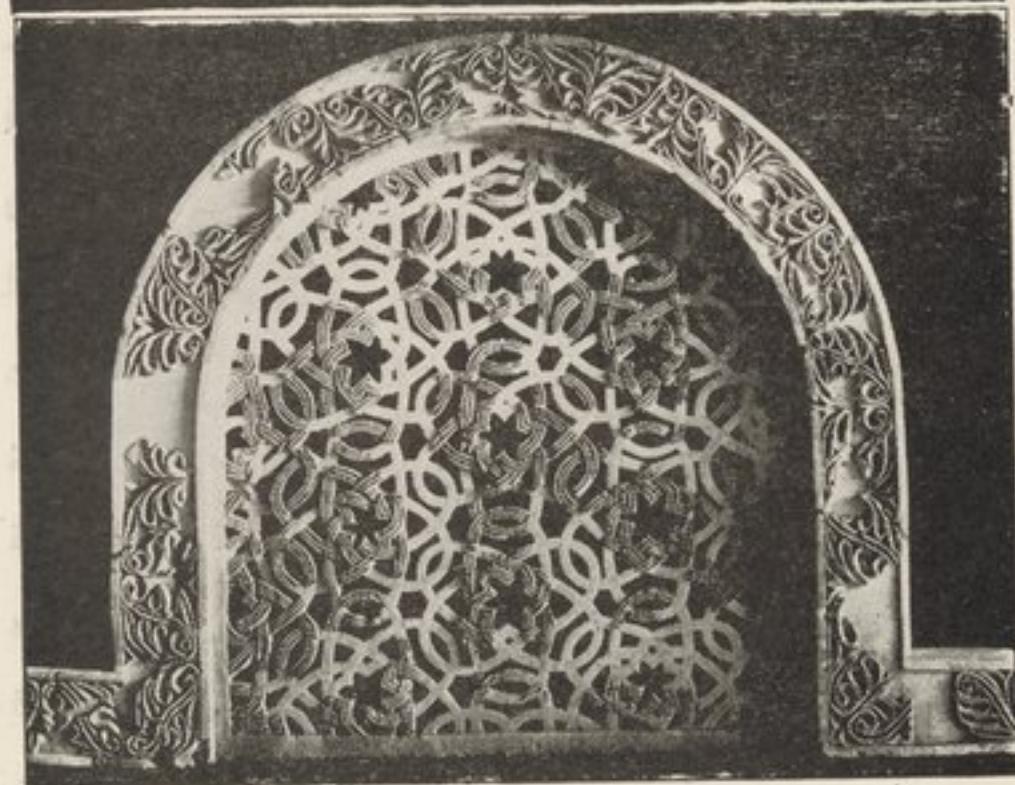
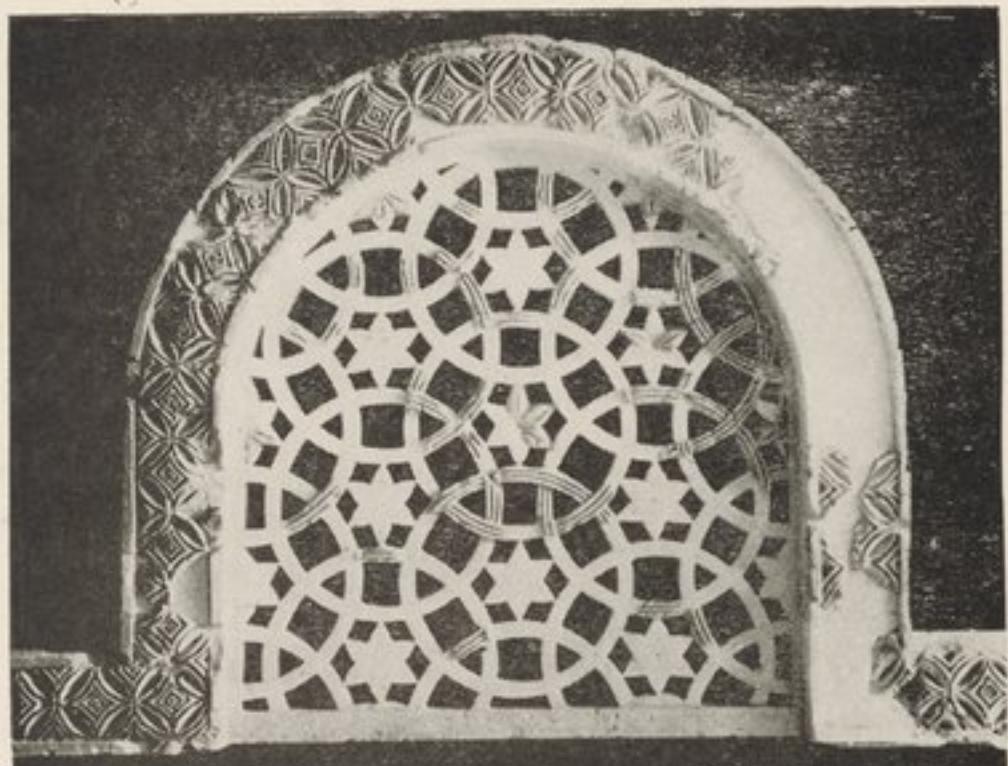


(اللوح ١٨)

قصر الحِير الفَرْبِي

انتهى إلى عصرنا من تزيينات قصر الحِير الغربي عدد كبير من مجموعات الزخارف الجصية التي جمعت من خرابه ، ونقلت إلى متحف دمشق ، وأعيد إنشاؤها فيه فأصبحت مصدراً رئيسياً لمعرفة منشأ الفن العربي ، وتطور حياة الأشكال في سوريا خلال القرن الأول والثاني من الهجرة .

ويشاهد في اللوح السابق الواجهة الخارجية لهذا القصر مع البرجين اللذين يحيطان بالباب الرئيسي وقد أعيد تركيبهما في جانب من جوانب المتحف . ويبلغ ارتفاعها نحو (١٦) متراً . وهي مزينة كلها من أسفل أسلفة الباب حتى مستنقعات البرجين ، بطبقة منحوتة من الزخارف الجصية ، المنظمة على عدة مناطق يعلو بعضها بعضاً . وتقسام كل منطقة من هذه المناطق إلى مستنقعات مزينة بواضع نباتية ، كشوكت اليهود ، وسعفات النخل وغيرها . وتشاهد المعينات ، والربعات ، وصفوف السويريات الصغيرة التي تحيط بمحاريب حاملة جبهات ، والورادات والألواح التي فيها بعض صور الأشخاص حول القوس المركزي المدور ، وفي أقسام البرجين العلوية .



(اللوح ١٩)

قصر الحير الغربي

وكان داخل القصر مزيجاً بجموعات أخرى من الزخارف الجصية المنحوة . ومنها درابزين كانت موضوعة في أعلى الرواق الشرقي ، وفيها عدة مشاهد وأشكال تحوي أشخاصاً وحيوانات مختلفة .

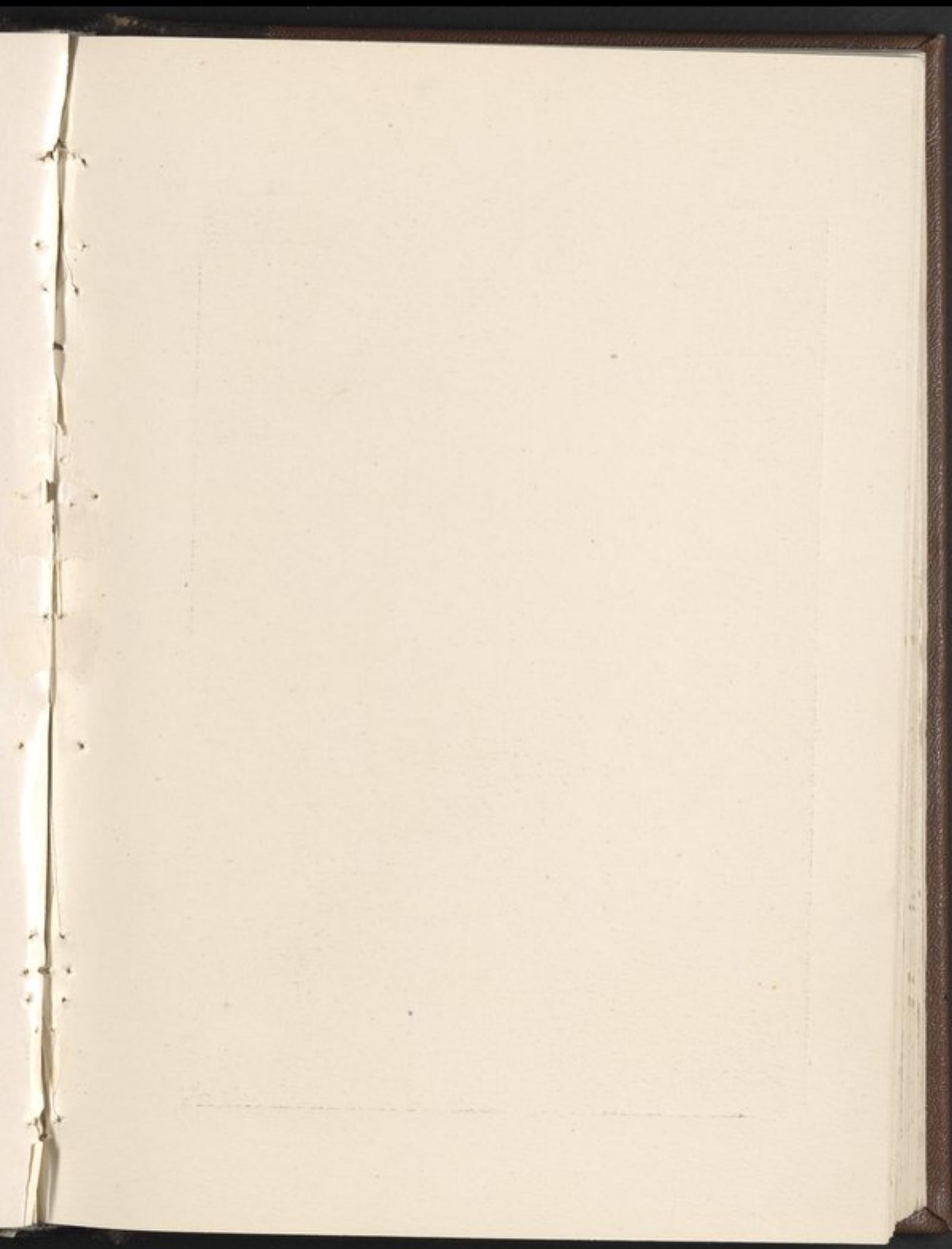
ومنها أيضاً أقواس ونوافذ كانت موضوعة فوق أبواب بعض القاعات الكبرى ، ومنها قاعات الاستقبال في الجناح الشرقي . وقد اجتهد موظفو ومستخدمو مديرية الآثار العامة خلال أعوام طولها حتى عكّنوا وامن إعادة تركيب نحو خمسين قطعة منها . وقد لوحظ أن أحجامها مختلفة ، وأن بعضها قطع فنية رائعة ذات جمال ساحر .

ويتمثل لنا اللوح (١٨) نافذتين منها ، كانتا فوق بابين من أبواب القاعة (٧) من القصر . كما يمثل لنا اللوح (١٩) نافذة ثالثة (وهي السفلية) كانت في نفس القاعة ، ونافذة رابعة كانت في القاعة (٥٥) من القصر .

ويتبين منها غنى الزخارف الهندسية والنباتية التي ابتكرت في العصر الاموي . والظاهر أن الفنانين الذين صنعواها استوحاها من المواقع الشائعة في فنون اليونانيين والقدريين والمسيحيين والساسانيين ، وتمثلوها بسهولة عجيبة وأتقنوا استخدام مواقع سعفة النخيل وشوكة اليهود ، وعنقود العنب ، وصفوف البيوض ، والمستويات البارزة ، وبرعوا براقة لاتجاري في المواقع الهندسية وتقارب المواقع المقدمة منها وذلك بتحويلها عن أصولها .

وقد ولد أسلوب الزخارف الاموية من جهودهم وأبحاثهم ، وتكاملت لغة الأشكال في الفن العربي ، وتهيأت لأن تعبّر عن كل ما يختليج في أفئدة الملهمين .





دِمْشَقُ فِي أَزْمَانِ السِّلْجُوقِينَ وَنُورِ الدِّينِ وَالْأَيُوبِيِّينَ وَالْمَالِيِّكَ

انتهى في سنة (٤٦٨ - ١٠٧٦ م) عهد الفوضى والاطمئنان الذي حل في دمشق منذ القرن التاسع ، وذلك لما قدم إليها الامير السلاجوفي (أنز) فانتزعها من سلطة خلفاء القاهرة الفاطميين ، وضمتها إلى دولة السلاجوقيين . وكان هؤلاء قد ظهروا على مسرح سياسة الشرق الاذني منذ مدة قصيرة ، وأسسوا دولة واسعة بعد ما انتزع طغول بك أحد أمرائهم الأقوباء السلطة الفعلية من خليفة بغداد العباسي ، وحكم البلاد الإسلامية باسمه . وقد ضموا إليهم بلاد فارس والعراق والأناضول وسوريا ، وغدوا مرهوفي الجانب ، ويلعبون دوراً كبيراً في حوادث ذلك العصر .

غير أن هذه الدولة الواسعة تزفت بعد وفاة (ملكشاه) . وقام خلفاؤه من بعده يتنازعون ملكية اقطاعها المختلفة . وقد انتهى أمر دمشق إلى ابن أخيه تاج الدولة تتش ، فاصبحت إمارة سلاجوقية حكمها أمراء مختلفون حتى منتصف القرن الثاني عشر . وأشهرهم ظهير الدين طغتكين الذي تولى زمام الأمور فيها مدة ربع قرن منذ سنة (٥٤٩٧ - ١١٠٥) . وقد سعى لتحصين دمشق وتنمية دولته وتأمين رخامتها واستقرار إدارتها ، وعقد المعاهدات مع الأمراء السوريين ، ليتمكن من الوقوف أمام الصليبيين الذين اخדרوا في آخر القرن الحادي عشر من جبال طوروس ، خلال الحروب الصليبية الأولى . فاستولوا على جزء كبير من سوريا الشهابية ، وعلى سواحلها وأسسوا إمارة القدس .

واستمرت هذه الحروب الضاربة التي شنها الغرب على الشرق مدة طويلة . وقد عبأ المسلمين والمسيحيون خلالها جميع قواهم المعنوية والمادية ، واقتتلوا في مئات المعارك الكبيرة والصغرى ، قبل أن يتعرفوا على بعضهم ، ويقدروا إياها العالية التي يتصف بها كل منهم . وأصبحت دمشق خلال ذلك مدينة عسكرية ذات أهمية بالغة بالنسبة للعالم الإسلامي ، لوقعها المتوسط بين الحواضر الإسلامية ، ولقربها من القدس التي كانت المور الإسلامي للصراع .

وسعى (أنز) حسب ما هو منصوص عليه في إحدى رسائل ابن طولون ، أو
نائج الدولة (نش) كما يذكر المؤرخ عز الدين بن شداد ، جعلها حصينة . فبنيت
قلعة على الطرف الشمالي الغربي من سورها ، واستفاد المندسون من تحطيطه ، واستعملوا
في البناء أحجاره الضخمة . وقام خلفاء هذين الاميرين من بعدهما للعناية بهذه القلعة التي
أصبحت تؤمن الدفاع عن دمشق .

واهتم أمراء دمشق السلاجوقيون أيضاً بالذب عن المذهب الشيعي ، ومكافحة الدعوات
الباطنية والاسعفالية . وعملوا على إنشاء المدارس التي تعلم الطلاب العلوم الدينية ،
وتفقهم فيها ، وتجعل منهم جنوداً يدافعون بحرارة عن العقائد السنوية . وكانت المدارس
الأولى التي أنشئت في دمشق واندر أكثراها : المدرسة الصادربة التي شيدها صادر بن
عبد الله سنة (٤٩١ھ) ، والمدرسة الأمينية التي بناها الاتابك كشتكتين سنة (٤٩٣ھ) ،
ومدرسة المعينية التي أسسها الامير معين الدين (وقد هدمت ولم يبق لها اثر) والمدرسة البلاخية
سنة (٥٢٥ھ) ، والمدرسة الشرفية سنة (٥٣٦ھ) الخ ...

وانصرف السلاجوقيون لتشييد عدد آخر من العمارتات الدينية والمدنية وساعدهم على
ذلك النشاط التجاري والتقدم الصناعي اللذين اختصت بهما دمشق في ذلك العهد . ومن
هذه العمارتات مسجد الوزير الذي بني سنة (٥٢٣ھ) ، وعدد كبير من المدافن والقبور ومنها
تربة صفوه الملك زوجة طغتكين (مكان سينما روكي الحالي) ، وضريح الامير معين الدين
أنر ، غربي حي العقبة في موضع اصح فيها بعد نوافذ حي جديد سبي (حي العونية) .
وكان من أثر هذه النهضة العمرانية ان المدينة ابتدأت تفتد خارج سورها ، وأن نشأت
أحياء جديدة في صواحبها ، وأن انتظمت أحياوها القديمة . ومن هذه حي العقبة الذي
أجري إليه الماء ، وبنيت فيه عدة قصور ، وجعلت حولها الحدائق فأصبح مقر بعض الأمراء .
وفي الزمان الذي حاول فيه الاتابك زنكي أمير الموصل تأسيس دولة في شمالي سوريا ،
كانت دمشق قد اشتهرت بحروتها ضد الآamarات اللاتينية الساحلية ، وأصبحت مركزاً للدعوة
إلى الجهاد . وعظم شأنها في العالم الإسلامي ، وغدت المطمع لكل من يحاول ان يوحد
أجزاء هذا العالم ، ليوجه جيود اهله لكافحة الصليبيين . لهذا فإن نور الدين محمود زنكي
الذي ورث عن أبيه نقاليده العسكرية وشهرته الحربية ، استولى عليها سنة (٥٤٩ھ)
(١١٥٤م) ، وجعلها قلب امبراطوريته الواسعة التي امتدت فيها بعد على كل البلاد
الإسلامية الواقعة بين مصر وفارس .

ومات نور الدين بعد أن عاش فيها خمسة عشر عاماً صرفها في حسن معاملة سكانها ، ونشر العدل بينهم والشهر على إقام تنظيماتها العسكرية . وقد اعمت خاصة بتحصينها ، وإنما بناء أسوارها التي تهدمت في الأزمنة السابقة ، وتحولت عنها عن تحضيرها القديم ، وجعلها تضم مساحات من الأرضي أوسع مما كان يحويه سوره القديم . وقد انحرفت هذه الأسوار في كل الجهات عن شكلها المستطيل السابق ، وأصبح لها شكل متعرج ومندفع خاصة إلى جهتي الشمال والجنوب .

ويا لاحظ أن ترميات نور الدين كانت حسب مبادئ التحصين العسكرية الرومانية والبيزنطية القديمة . ثم إنه أضاف إلى سور عدة أبراج حصينة . كما أنه بني باب الفرج وباب السلامة ، وررم عدة أبواب أخرى . منها الباب الشرقي وباب الجاوية والباب الصغير وجعل على كل منها منارة ولكل منارة مسجداً . ونظم فيها سوقاً (باشورة) ذات حوانين ، ويتمكن إغلاقها ، ليتمكن أهلها من البقاء فيها ، لدى حدوث غارات الأعداء ، وإقامتهم الحصار على المدينة .

ومن آثاره أنه بني دار العدل غربي القلعة ، وخصصها لفض المازعات بين الناس . كما أنه شيد دار المسرة في داخل القلعة . ويعود البيمارستان الذي بناه في السنة الأولى من دخوله إلى دمشق أشهر من شائه . وقد بناه من مال الفداء الذي أخذته من أحد ملوك الأفونج ، كان في اسره ، وقدره ثلاثة ألف دينار .

وقد ظهرت في هذه المنشآت تأثيرات العراق وفارس في فن البناء ، التي تمتاز بها الدمشقيون وطبعواها بطبعهم ، كابتعان نظام التعامد في الأبنية ، وجعل القباب عليها ، وترى ابنها بالقرنفات ، وطلي جدرانها بالزخارف الجصية ، واستعمال الخط النسخي فيها إلى جانب الخط الكوفي ، ومن منشآت نور الدين أيضاً المدارس . وأشهرها المدرسة النورية الكبيرة التي دفن فيها ، والحمامات كهام نور الدين المشهور ، والجوامع والخانات والرباطات وغيرها . فكان بكل هذه الاعمال من أشهر الملوك الذين تولوا حكم دمشق ، وحفظت ذكرهم فيها إلى الأبد .

* * *

وبعد أن توارى وجه نور الدين العظيم عرفت دمشق خلفاً له ، لا يقل عنه شهرة ومجداً وحبلاً للعمارات ورغبة في الإحسان إلى الرعية . وهو صلاح الدين يوسف الأيوبي أحد أبطال التاريخ العالمي في كل الأزمان ، والذي سعى - بعد إلغاء الخلافة الفاطمية في القاهرة ، إلى القضاء على فكرة الحروب الصليبية قضاة مبرماً . فاستولى على دمشق

وحلب واجتهد حتى اتم استعداداته العسكرية ، وفرض على ملك القدس الصليبي معركة حطين التي أودت بعمره وأدت إلى سقوط عاصمته .

وكانت دمشق في عهده مر كرزاً لأمبراطوريته الواسعة التي تند على قسم كبير من الشرق الادنى ، وكان يميل إلى البقاء فيها ، ويعطف على أهلها ، ويحسن معاملتهم ، ويغفهم من كثير من الفرائب . وقد أتم هو وأخوه الملك العادل وخلفاؤهما من بعدهما السياسة العمرانية التي بدأها نور الدين . فاكمل إنشاء جهاز المدينة الدفاعي ، وتم جعلها مر كرزاً للأشعاع الديني والعلمي في كل أنحاء العالم الإسلامي .

وقد انصرف الملك العادل ل إعادة بناء القلعة كلها منذ سنة (١٢٠٦ = ٦٥٠ م) ، وذلك لكي تكون تحصيناً متفقة والمبادى الجديدة التي توصل إليها الفن العسكري في ذلك الزمن . وسار على خطته هذه أربعة سلاطين من خلفائه ، وساهموا في تشييدها وجعلها على شكل مستطيل ، أبعاده (٢٢٠ م × ١٦٠ م) ، وحوله إثنا عشر برجاً . وقد أصبحت مقر الحياة السياسية والإدارية في دمشق . وكان فيها قاعة للعرش ومكاتب للادارة المدنية وأخرى للادارة العسكرية ، وبرج للطبلور التي تقل البريد ، ومصنوع أسلحة ، ومكان تخزين الدولة ، وسجن . وكانت فيها أيضاً سوق وعدة حمامات ومسجد . وخلاصة القول إنها غدت مدينة صغيرة يمكنها أن تكفي نفسها .

و عمل الأيوبيون أيضاً على إصلاح أسوار دمشق التي كانت مناعة بناها القديم دون مناعة أسوار القلاع الجديدة ، التي امتدت بها البلاد السورية في ذلك العهد . فبنوا سوراً حصيناً في الشمال بعد سور القديم . وفي عهدهم أصبح للمدينة ميدانان عسكريان يتمرن فيها الفرسان والجنود على أعمال القتال . وهما : الميدان الأخضر في غرب المدينة ، وكانت محاطاً بالأشجار ، ويبلغ طوله نحو (٥٠٠ م) ، وعرضه نحو (١٥٠ م) ، وميدان الحصا في جنوبها .

وتكللت المدارس خلال حكمهم . وكانت تشبه بعض الشيء بخطيباتها وتوزيع غرفها وواجهتها ، مدارس عهد نور الدين . وكانت الغاية من إنشائهما كما قلنا تعليم الطلاب القراءة وإسكانهم . لهذا فإن الأمراء الأيوبيين ، وأعيان المدينة كانوا يبنونها و يجعلونها على أشكال مكعبية فوقها قباب واطلة ، ومحاطة بجدران خالية من الزخارف ، ولها أبواب ، تعلوها بعض الزخارف البسيطة . وهي بصفتها هذه تعكس تفاصيل هذا الزمن العربي ، وتمنح دمشق منظر المدينة العالمة المحايدة ، وتعدّ الزمن الكلاسيكي في تاريخ الفن

الدمشقي . أما داخلاها فقد كانت له باحة متوسطة تنتظم حولها غرف الدرس . ولا يخاور كل ذلك من روعة لمنارة بنائهما ، وانساق تأليف منهاجه ، الذي يتفق مع حياة الفكر اللائذة في أفيائها . وشهر المدارس التي نشأت داخل سور المدينة ، مدارس العزيزية ، والعادية الصغرى ، والعادية الكبرى الخ .. وخارج سور الشامية ومدارس الصالحة التي اتسعت وأصبحت كأنها مدينة جامعية مسفلة ، وكثُرت فيها أيضاً الجماع والقصور والأسواق . فكان بذلك العصر الابوبي من أين العهود على دمشق . وعلى الرغم من قصر مدته فقد تكون أهلواه من تشييد منشآت هي اضعاف ما شيد العصر التالي الذي دام مدة أطول بكثير .

* * *

وبدأت الحروب الصليبية تجتاز مرحلتها الأخيرة ولم يكُن أهل الشام يتخلصون من ويلامها حتى اجتاج المغول العراق بسليم الجارف ، واستولى (هولاكو) حفيد جنكيز خان على بغداد ، وأنزل بها شروره . ثم توجهت جيوشه الدافقة نحو البلاد السورية ، فدخلت حلب ودمشق ، وعاثت فيها فساداً وتخريباً . وتقدمت إلى الجنوب فالنقت بجيش المماليك البحريّة ، الذين كانوا قد وضعوا أيديهم على عرش القاهرة ، في عين (جالوت) سنة (١٢٦٠ م) فهزمت شر هزيمة .

ثم توَّلَ الملك الظاهر ببرس الحكم غداة هذا الانتصار ، فكان من أعظم الملوك المناضلين الذين عرفتهم التاريخ الإسلامي . إذ أنه وجَّه القتال بهمة لا تعرف الكلال ضد الصليبيين الذين أخذوا تضيق رقعة مملكتهم شيئاً فشيئاً ، وتسقط الحصون التي يعتصمون بها الواحد بعد الآخر .

وقد استولى الملك الظاهر على أكبر مدينة لهم في الشمال وهي أنطاكية ، كما دخل خلفه قلاوون عكا وطرابلس ، وانتهت بذلك الحروب الصليبية .

وقد انصرفت همة الملك الظاهر وبقية سلاطين المماليك إلى مكافحة المغول الذين را布وا في شمالي العراق ، وأخذوا يغزون منها على بلاد الشام على فترات مختلفة منذ ذلك الزمان حتى منتصف القرن الرابع عشر ، حيث قلل خطورهم ، وتفرق جياعتهم ، وفقدوا طباعهم الوحشية وأخلاقهم الحربية . وكانت دمشق آنذاك مركزاً من مراكز تجمع الجيوش المقاتلة . غير أنها ضمت إلى مصر مع بقية البلاد الشامية ، ففقدت بذلك استقلالها الإداري . وفي سنة (١٣٨٢ م) توَّلَ المماليك البرجية العرش بدلاً من المماليك البحريّة . فكان عهدهم مملوءاً بالانقلابات العسكرية والمماورات ، وزنوج الأمراء إلى العرش . وما ذلك

إلا لزوال عاطفة الاخلاص الى السلالة المالكة ، وتحكم الرؤساء العسكريين في شؤون البلاد ، وانفرادهم بالنعم بغير انها .

ولما حانت سنة (١٤٠٣ = ٨٠٣ هـ) نزلت بدمشق أكبر التوازل التي مُنيت بها في كل عصور تاريخها الطويل ، وأقبل عليها تيمورلنك وعصاباته البربرية المتعطشة إلى الدماء والاموال . ففرضوا على اهلها (مليوناً) من الليرات الذهبية وما استوفوها ، دخلوها وأغروا السيف في رقاب السكان ، والنار في المنشآت . وهدموا بيوتها وقبورها وجراهمها ومدارسها وسبوا نسائهم وأطفالها . ويقال إنهم أهلكوا في الجامع الاموي فقط ثلاثة ألفاً من سكانها وبينهم النساء والاطفال . ثم قادوا إلى عاصمتهم سيرقند عدداً كبيراً من صناع الأقمشة والزجاج والأسلحة ، والعلماء والفنانيين .

وقد تأثرت حياة المدينة الاقتصادية من هذه الكارثة . وكانت صناعتها قد بلغت درجة كبيرة من الانقان وذيع الصيت . واشتهرت خاصة بصنع الأقمشة والأدوات الفضية والأسلحة والزجاج المطلي ، وغير ذلك من الاشياء والتحف التي اعتادت تبارات التجارة الداخلية ان تحملها الى القاهرة حيث ينعم بها كل من يلوذ بيلات الماليك ، وتبارات التجارة الخارجية الى عالم البحر المتوسط ، حيث انسعت المبادرات بين اقطاره المختلفة اثناء الحروب الصليبية وبعدها .

وظلت القلعة مدينة ملكية كاذكينا ، غير ان دمشق لم تعد تستطيع البقاء ضمن سورها القديم ، إذ أن الناس كانوا يضطرون ان يدمروا المنشآت القديمة ليبنوا غيرها في أماكنها . لهذا فان الحياة العمرانية امتدت نهائياً الى كل الجهات . فنشأ سوق الحيل في شمال القلعة وكان يرثده الفرسان ، ويتعاونون من حواناته حواناتهم ، ويقيمون فيه حفلاتهم العسكرية ونشأت بقربة سوية صاروجا وسكنها الجنود وقوادهم . واقام صناع الفخار في شرقى سور المدينة وراء الباب الشرقي . وامتد في الجنوب حي السوية ، وانشرت فيه الخانات اللازمة للتجارة البرية التي كانت تتبادل منتجاتها مع مصر وسوريا الجنوبية . وكذلك انتظم حي الصالحة واتسع كثيراً ، وأصبح يلوك كل المنشآت العمرانية الازمة .

وعلى الرغم من كل ما أصاب دمشق فان ابنيتها تكاثرت خلال عصر الماليك الذي امتد بين سنتي (٦٥٨ - ٦٩٢ هـ) . ولم يعد الناس خلاله يبنون المدارس كما فعلوا في القرون الماضية بل انصرفت فاعليتهم الى بناء مسجد في كل حي من الاحياء . وكانت منابر هذه المساجد الرشيقه ترتفع في سماء المدينة بجذوعها المدوره او المضلعة وشرفاتها البارزة ، وهي لا تشبه

المنائر القديمة المربعة الضخمة ، المشيدة على شكل البراج . فكأنها الآن أدعية وابتهاles حارة موجهة إلى السماء .

وهكذا فان الفن الدمشقي الابوبي الكلاسيكي المنشئ للموازن ، استبدل بفن الماليك الرومانطيكي الرشيق الجليل الذي ملأ المدينة بعدد كبير من منشآته . ومنها الخاميم والخانات ودور السكن . وكان من أهمها الترب التي أفت بمجموعات ظريفة زينت دمشق وضواحيها أجمل زينة .

ويختص فن العماره في عصر الماليك بالأخذ نظام التعامد في التخطيط نهايًها ، وتصغير الصحن في المساجد أحياناً ، وحذفه أحياناً أخرى ، والاكتار من الاواوين الداخلية ، وتشيد أكثر من جهة في البناء الواحد ، واستعمال الاحجار ذات الابعاد الصغيرة في المدارميك ، وجعلها على لونين أبيض وأسود . وعظم شأن الزخارف في الابنية ، وبعد أن كان دورها قاصراً على أن تكون خاضعة لها ، غدت متحكمة في كل أجزائها ، وانتشرت على المآذن والمداخل والمنابر والمحاريب . وأهم عنابرها : الفسيفساء والرخام الملون والمحفور والمطعم بالصدف ، والفالساني والاخشاب الملونة التي يعتمد عليها الخط النسخي العربي الزهر والأشكال الهندسية التي لا تختص انواعها ، والقرنchas التي تعددت أشكالها ، واختلفت ، وصارت تضيف تأثيرها الفني إلى تأثير الجبهات المتعددة الالوان ، فتنعكس عليها الأنوار وتنشأ منها ظلال رائعة .

(اللوح ٢٠)

بِيَارْسْتَانُ نُورُ الدِّين

شيد سنة (٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م). وكان فاتحة أعمال السلطان نور الدين بن زنكي ومن أعظم آثاره في المنشآت المدنية التي ذخر بها عبده في دمشق وقد أطرب المؤرخون في ذكره، وأفردوا الفصول الطوال في وصف بنائه وزخرفته، ونقاشه الخ... وله أهمية كبرى في تبيان تطور العمارة الإسلامية في دمشق خلال القرن الثاني عشر الميلادي، وتأثيرها بالعناصر الفنية التي أتى بها الزنكيون من بلاد الرافدين وإيران. إذ أنه شيد على تحاطيط ذي نظام متعامد، وجعلت له باحة مركبة حولها أواين، وزين بالمقرنصات. ويدخل الزائر إليه من بابه الذي يبرز عن جداره الغربي، وتزين المقرنصات أعلاه. وفوق هذا الباب اسكفة عليها زخارف رومانية (ويظن أنها مأخوذة من أحد الآبيات القديمة). وله مصرايان من نحاس مزینان بزخارف هندسية ومسامير بارزة من الخارج، وزخارف خشبية جميلة الصنع من الداخل. وبأبي الدهايز وفوقه قبة من المقرنصات، في جانبها نصفاقبة عليها مقرنصات أخرى. ثم تأتي الباحة، وفي وسطها بركة. وحولها الأُواين. وكانت المعالجات الطبيعية تجري في الأيوان الأوسط منها. أما الأيوان الجنوبي، ففيه لوح مزخرف من المرمر، يقوم مقام المحراب. وهو مزین بنقوش جميلة، تتمثل مواضع نباتية مختلفة. وجدرانه مزينة بأفريز ومستطيلات من المرمر المطعم.

وقد رم هذا البناء في عصور مختلفة، وأصلحته مديرية الآثار العامة. ويرينا اللوح (٢٠) منظر باحته؛ ويرى في صدرها بابان فوقهما نافذتان جصيتان بدعتا الصنع.



اللوح (٢١)

البَابُ الصَّفِيرُ

يسمى الباب الصغير أو باب الشاغور ، ويقوم في طرف السور الجنوبي مكان باب روماني قديم . وقد جدده نور الدين ، وعليه كتابة مستطيلة بالخط الكوفي تشير ان نور الدين قد رفع حق التسفيه عن التجار الذاهبين الى العراق والقافلتين منها .

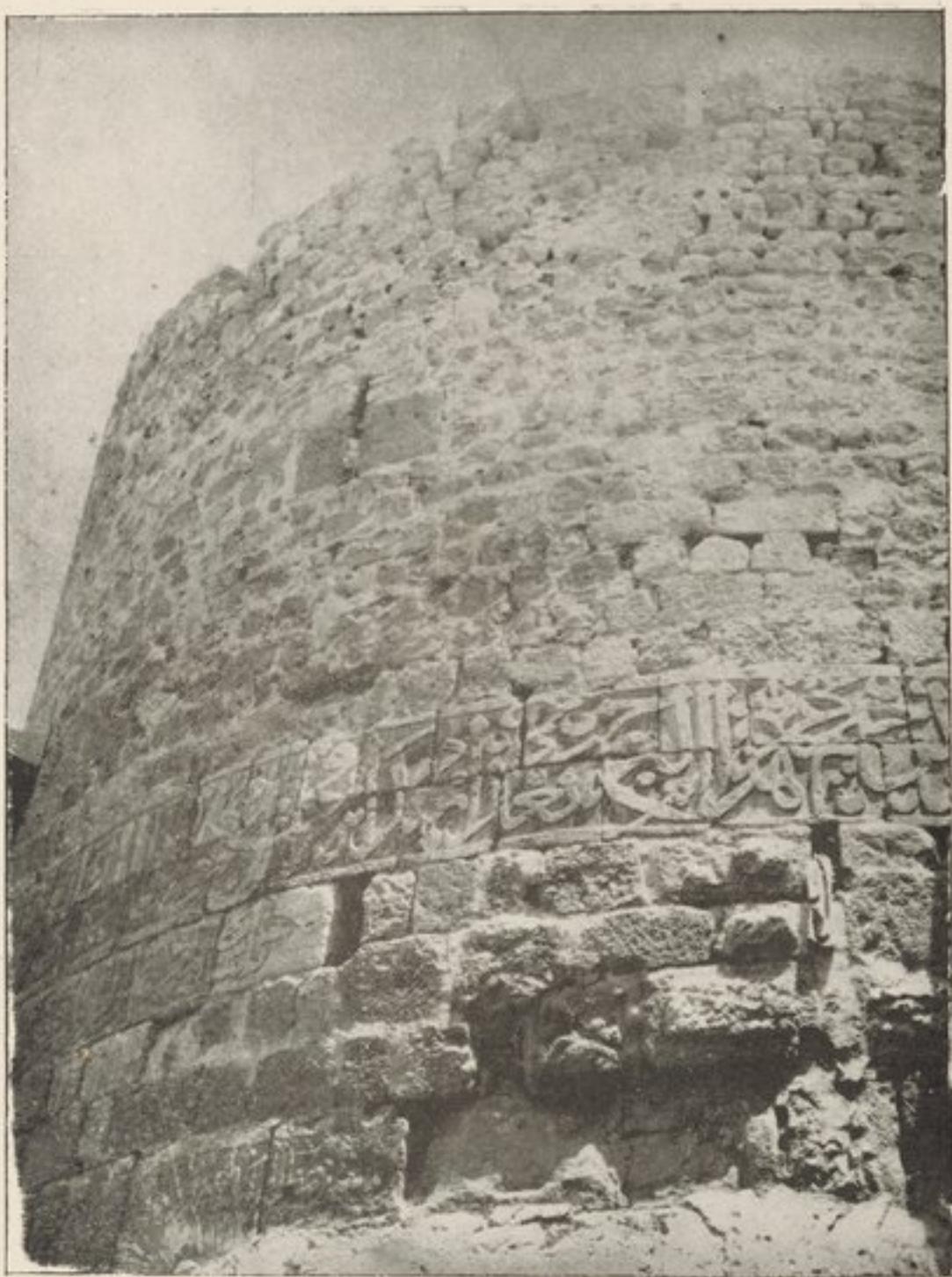
ثم جدد مرة ثانية في زمن الايوبيين ، وعليه كتابة تذكر ان السلطان عيسى بن الملك العادل هو الذي قام بهذا العمل سنة (٥٦٢٣) .
ويظهر ان ذلك لم يكن الا دعماً لما قام به نور الدين .

ويرينا اللوح (٢١) هذا الباب ، ويعلوه قوس مدور ، وفوق هذا القوس من الداخل قبة على شكل المهد . وله مصراعان ملبسان بصفائح الحديد المثبتة بمسامير غليظة ، يتحركان بارات كاذاها على عضادتين صغيرتين علويتين ، وعضادتين سفليتين .



برج نور الدين

يقع هذا البرج في الطرف الجنوبي الغربي من سور المدينة ويبلغ ارتفاع بناؤه الحالي عشرة امتار . وقد بناه نور الدين سنة (٥٦٤ هـ - ١١٦٨ م) . وله قاعدة مربعة وشكل شبه مستدير . ويشبه الابراج التي بناها المهندسون المسلمين في هذا القرن متأثرين من بناء الابراج القديمة . تم ابتكروا أشكالاً غيرها في فاتحه القرن الثالث عشر الميلادي . وهو كما يرى في اللوح (٢٢) مبني من احجار مستعملة اخذت كما يظن من سور المدينة القديم . ويلاحظ ان صفوتها السفلية اضخم من صفوتها العلوية التي جددت في زمن الملك الناصر قلاوون . كما يدل على ذلك الكتابة النسخية الجميلة المزخرفة التي تزين أعلى على شكل نطاق مستدير .



(اللوح ٢٣)

الجامع المظفري

وهو جامع الجبل في الصالحة ويعرف باسم (جامع الخانبة) ، أو اسم (الجامع المظفري) وقد بدأ تشييده الشيخ أبو عمر محمد بن قدامة الحنفي سنة (٥٩٨ هـ ١٢٠١ م) . ولما بلغ البناء مقدار قامة ، نفذ المال ، فبلغ خبر ذلك الملك المظفر كوكبوري بن علي بن بكتكين صاحب اربل ، وزوج ربيعة خاتون ، اخت صلاح الدين الايوبي . فأرسل مالاً لا يكاله . وتشير إلى ذلك كتابة منقوشة فوق باب الجامع الغربي . وقد انتهى البناء سنة (٦١٠ هـ - ١٢١٣ م) وكان أول جامع أيوبي في دمشق .

ويلاحظ أن مخططه وشكله العام مستوحيان مع شيء من الاختلاف ، من مخطط وشكل الجامع الاموي . إذ أن صحنه الذي توسطه بركه ماء ، محاط بثلاثة أروقة ممولة على التوالي على أعمدة وركائز ، وان مئذنته على شكل برج مربع ومقامة على مدخله الشمالي ، وان له بابين في شرقه وغربه .

ويرينا اللوح (٢٣) جانبًا من رواقه الشمالي ، وفوقه مئذنته ذات الجذع المربع . ويلاحظ ان الأعمدة قديمة وذات تيجان كورنثية ، وان البناء بسيط مطبوع بالوقار البسيط الذي لا يخلو من عظمة .

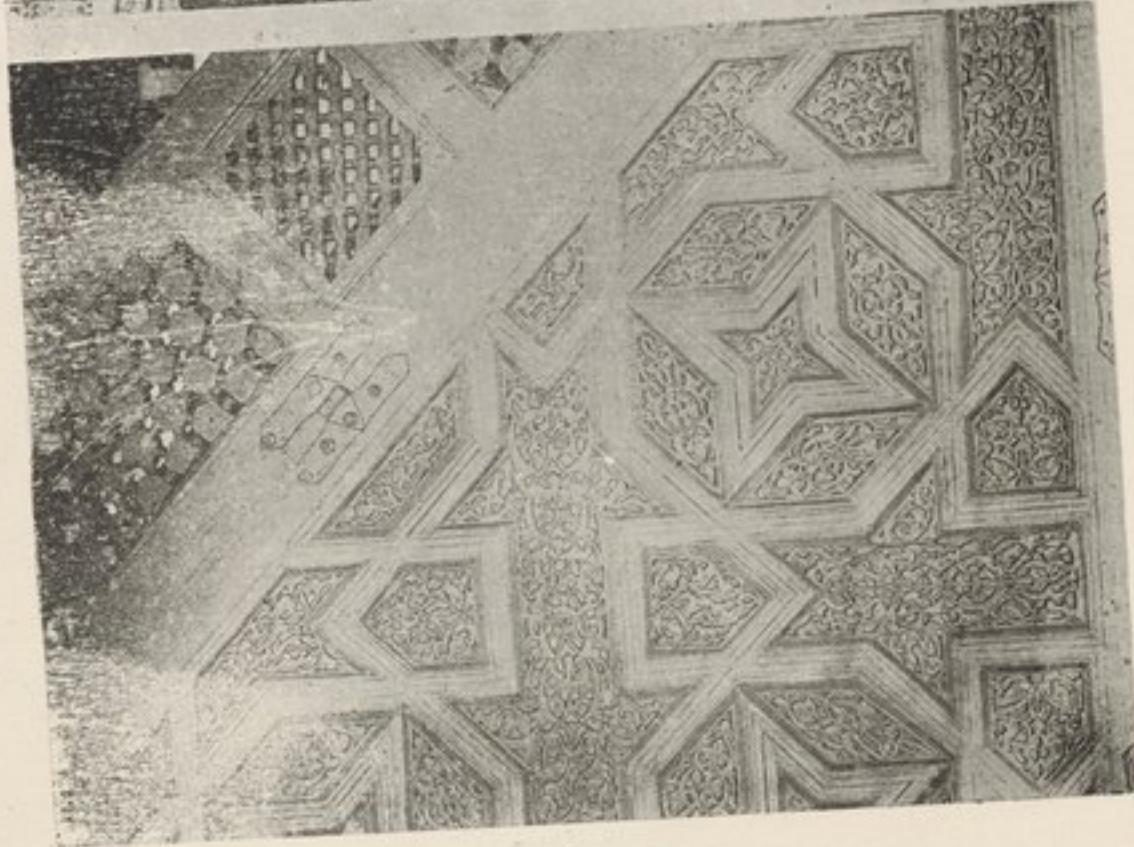
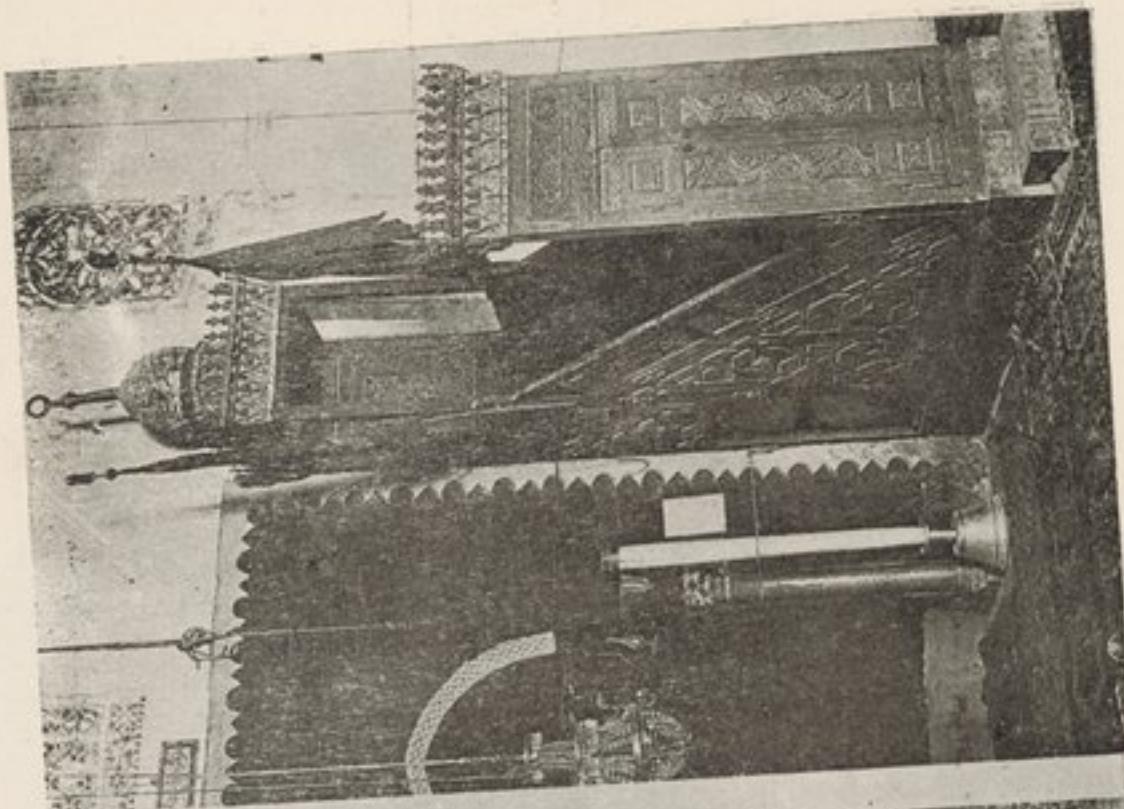


(اللوح ٢٤)

الجامع المظفري

ويقوم حرم الجامع المظفري الى جنوبه كحرم الجامع الاموي وتبعد ابعاده (٣١٥ م × ٢٥٦ م) . وتخطيه ثلاثة سقوف منكسرة وموازية لجداره انتقلي . وداخله مقسم إلى ثلاث بلاطات بواسطة صفين من الاقواس ، محمول كل منها على ست قواطع . وله سبعة أبواب فوق كل منها عارضة من الخشب المحفور حفرًا خطياً ضامراً يشبه ماسمه هرتسفيلد (اسلوب ساصل الأول) . وفوق كل من البابين اللذين يؤديان إلى الصحن نافذة جصية مخرمة تشبه النوافذ التي تحدثنا عنها الذي كلامنا عن بيمارستان نور الدين .

أما محرابه الذي يرى في الصورة الأولى من اللوح (٢٤) فهو من الحجر المطلي بطبقة من الأصبغة الزيتية الكثيفة . وليس له من الزخارف إلا نطاق علوي مدور مضفور ، وإطار خارجي مسنن بارز . ويحاط وسطه بعمودين عليهما تاجان . وقد أتي بهما كما يظن من كنيسة غوطية . ثم أن المنبر هدية من الملك كوكبوري كما ذكر كتابة حوله . وعليه طبقة من الأصبغة الزيتية وهو مقسم إلى أجزاء وزين بعواضيغ محفورة جميلة جداً ، تحيط بها الأشكال الهندسية بالعروق النباتية ، كما يرى ذلك في الصورة الثانية من هذا اللوح .



(اللوح ٢٥)

جامع التوبة

يقع هذا الجامع في حي العقيبة ، خارج سور المدينة . وقد بناه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبو بكر أبوبكير سنة (٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م) . بعد أن أمر بهدم خان عرف بالفجور والخواطىء كان قائماً في موقعه . ولذلك سمي جامع التوبة . وهو من أكبر جوامع دمشق . ومحاطه مستوحى من مخطط المسجد الأموي . اذان له صحنًا توسطه بركه ، وتطوف به اروقة محولة على ركائز (اللوح ٢٥) الصورة ٢) وفي جنوبه حرم المسجد ويتصل أيضًا بمعزات الابنية الأيوبية من حيث بساطة هندسته وجمال ترتيبه .

وقد احترق سنة (٦٩٩ هـ - ١٢٩٩ م) . ثم جدد تدريجيًا .
وله بابان أحدهما في جداره الشمالي ، والثاني في الزاوية الشمالية من جداره الشرقي : وفوق هذا الباب كتابة في إنشاء المسجد وأو قافه ويلمه مقرنص جليل منشأ على ثلاثة صفوف (اللوح ٢٥ ، الصورة

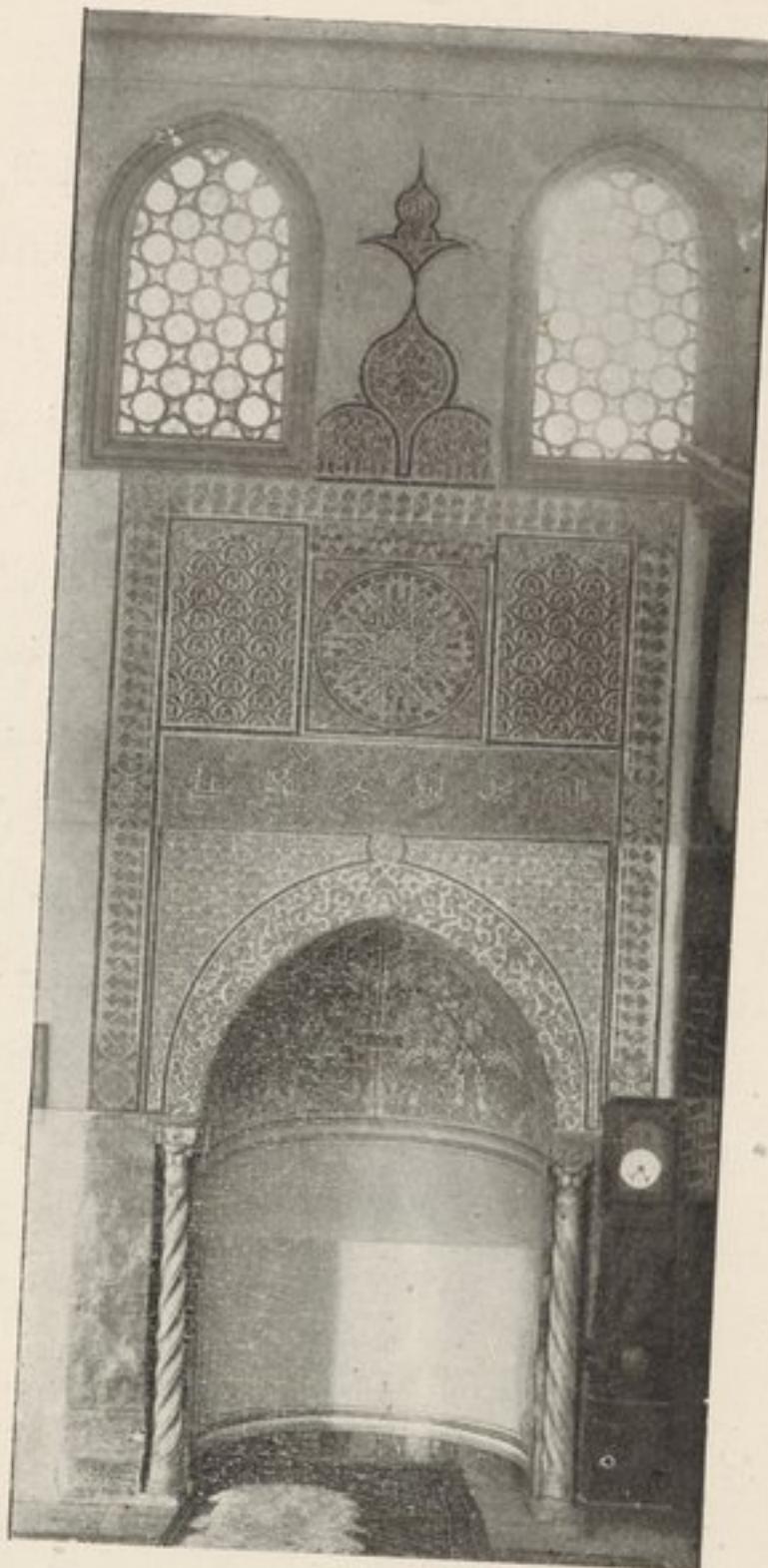


حراب جامع التوبة

يعد حراب جامع التوبة من أجمل مخاريب جوامع دمشق . وهو مصنوع من الحص المنحوت والمزين بزخارف مختلفة نباتية وهندسية وكتابية دقيقة للغاية . ويحده من طرفيه سويرستان مرمرستان مضفورستان . وتعلوه نصف قبة مزينة بزخارف متكررة ومتناهية وهي محولة من عناصر نباتية إلى أشكال قريبة من الأشكال الهندسية . وحولها إطار من الكتابات القرآنية .

أما قوس الحراب الخارجي فهو مملوء أيضاً بعض الزخارف المتشابكة المحولة عن اصول نباتية . وعلى طرفيه قطاعان فيهما زخارف هندسية دقيقة . ثم تأتي طبقة الحراب العلوية . وتألف من ثلاثة مستطيلات ذات نقوش مختلفة ، وفي وسطها قلادة تعلق مثمناً هندسياً منشأ على دائرة كبيرة من كلام الشهادة (لا إله إلا الله) ، التي تكرر بأحرف كوفية .

وكذلك يحيط بمجموع الزخارف المتقدمة صف من الكتابات المائة . وقد استوحى في إنشاء هذه الزخارف من المواريث المختلطة التي زينت بها تربة صفوه الملك وبيارستان نور الدين ، والمدرسة الشامية وغيرها . ولا يبعد أن تكون قد صنعت لأول مرة في زمن إنشاء هذا المسجد ، ثم جددت فيما بعد ، والدليل على ذلك أن طلاءها جديد . إذ ان العناصر النباتية جعلت على لون أخضر في أرض حمراء ، وابقيت خطوطها البارزة بيضاء .



المدرسة العادلية

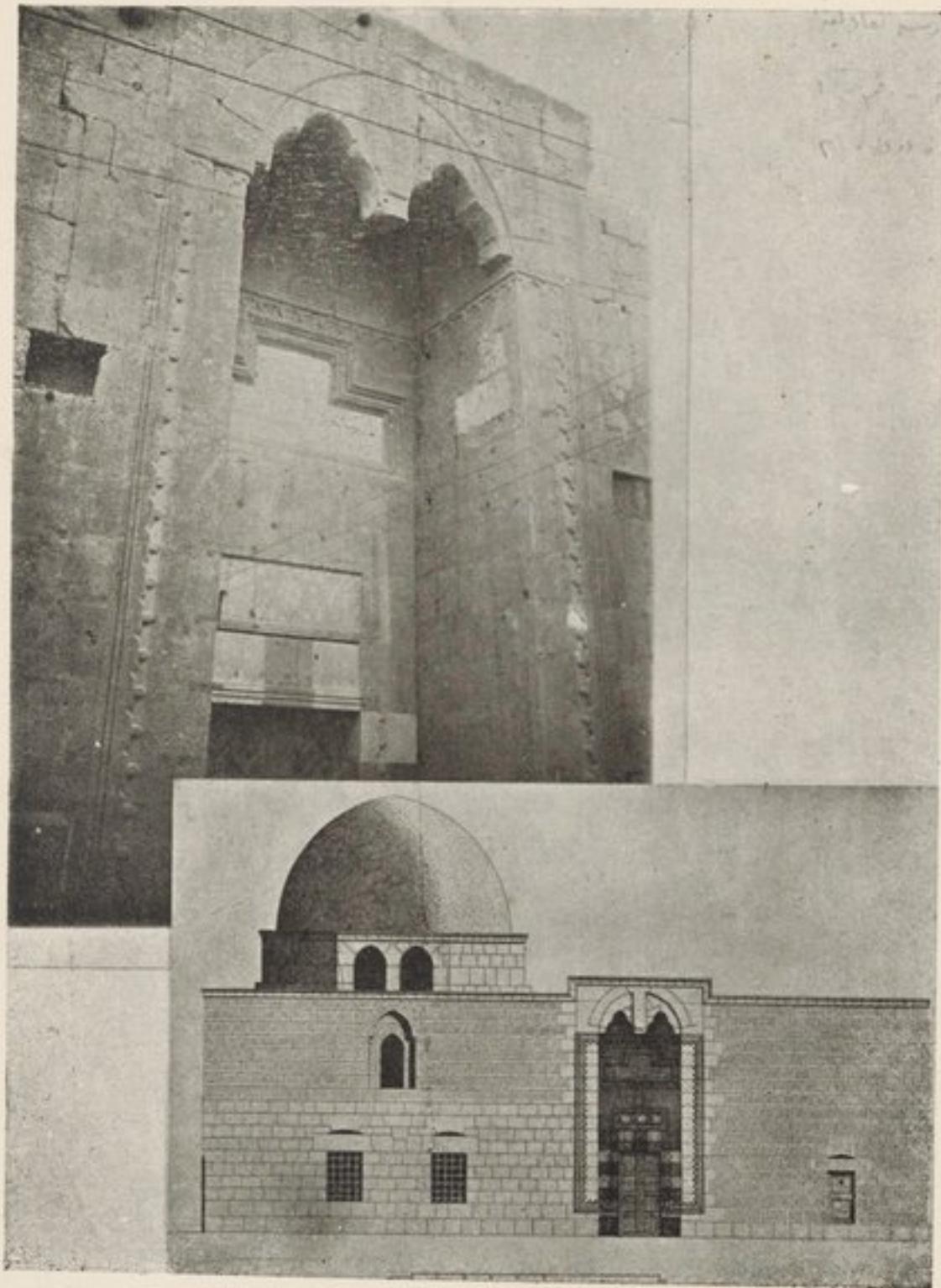
تقع في الشمال الغربي من الجامع الاموي وهي الان دار الجمع العلمي العربي . وقد بدأ تشييدها الملك العادل سنة (٥٦١٢ = ١٢١٥ م) ، وأتمها ابنه الملك المعظم من بعده ، ونقل إليها رفات والده . وكان قد مات قبل أن ترثها كاملاً عيناه ، ودفن فيها سنة (٥٦١٩ = ١٢٢٢ م) .

ويتبدى فن العمارة الأيوية المزينة والمتقشفة ، على أكمل شكل ، في هندسة هذه المدرسة ، وتحيط بها ، وتناسب أبعادها وبساطة زخارفها ، وحسن تنسيقها . ولا يوجد ما عاشهما في الأبنية الدمشقية إلا عدد قليل . ويشبه مخططها تحضيرات مدارس حلب الأيوية وخاصة تحضير المدرسة النورية الكبرى في دمشق . حتى ان المؤرخ هرتسفيلد نسب بناء المدرستين الى مهندس واحد .

ومن مزاياها خطاط المدرسة العادلية أنه واضح ، وأن أنماط البناء قد وزعت في
توزيعاً منطقياً حول محور واحد . وتقوم بركمه في وسط الصحن . ويقع المصلى في
جنوبه ، واليونان الكبير في شماله ، وغرفة الاستاذ في غربه تجاه المدخل . وكانت
غرف التلامذة في شرق الطابق الثاني وفي غربه ومكان المكتبة في الحراب من محور
ال يونان . أما تربة الملك العادل فأنها في زاوية المدرسة الجنوبيّة الشرقيّة .

وبناؤها في معظم أقسامها من الأحجار المنحوة حتى جيداً، ذات الأبعاد المتشابهة (٥٣ سم لكل منها). وقبة التربة قائمة كأنها المصباح على قاعدة مثمنة من الخارج، وتحتها أربع زوايا بارزة مثلثة الشكل ومزينة بالقرنchas من الداخل.

أما جبهتها الخارجية (الصورة الأولى من اللوح ٢٧) فيزين سقفها عقدان متباوران من المقرنصات، وتجهه قوس ذات مفتاح حجري معلق وتحيط بباب زخارف هندسية سوداء ويضاهي ثم تسلق على طرفي الجبهة حتى أعلىها، فتمنحها جمالاً بسيطاً رائماً.



المدرسة العزيرية وتربة السلطان صلاح الدين

تقع هذه المدرسة في حي الكلاسة شمالي الجامع الاموي . وقد بناها الملك عزيز عثمان بن صلاح الدين الايوبي ، على اثر وفاة والده ، في قلعة دمشق ودفنه موقتاً فيها ، سنة (٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م) .. ثم نقلت إليها رفاته بعد ثلاث سنوات .

واندر بناء المدرسة ، ولم يبق منها إلا التربة المبنية حسب قواعد العمارة الايوبية . وهي مربعة الشكل ويتوسط الباب جدارها الشرقي ، والنواخذة بقية الجدران . ويعلو البناء قبة مضلعة .

وقد كسيت جدران التربة بألواح قيشانية يرجع عهدها إلى زمن العثمانيين .



(اللوح ٢٩)

ضريح السلطان صلاح الدين

وتحت القبة في وسط البناء ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهو مرمي محدث أهداه غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا لدى زيارته دمشق . وإلى جانبه ضريحه الأصيل . وهو مصنوع من خشب الجوز ، المزين بزخارف منحوة نحشاً جيلاً جداً . وفي أعلى الكرسي مكتوبة بخط كوفي مشجر ، يعتمد على شكل زنار . وعلى وجوهه الأربع أشكال هندسية ، تخللها زخارف نباتية ، تثلل أوراق الدوالى ، وأغصانها خارجة من أبواب الرخاء .

ويعد هذا الضريح مثلاً رائعاً لصناعة الأخشاب المحفورة في العهد الأيوبي (اللوح ٢٩) .

ويقول ابن خالكاد إنه قرأ على الضريح في سنة (٦٨٠ هـ) كتابة كتبها قاضي صلاح الدين الفاصل محيي الدين المعروف بابن زكي الدين الدمشقي .

وهي ما يلي بعد ذكر تاريخ الوفاة :

« اللهم فارض عن تلك الروح ، واقع لها أبواب الجنة ،
فهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح » .



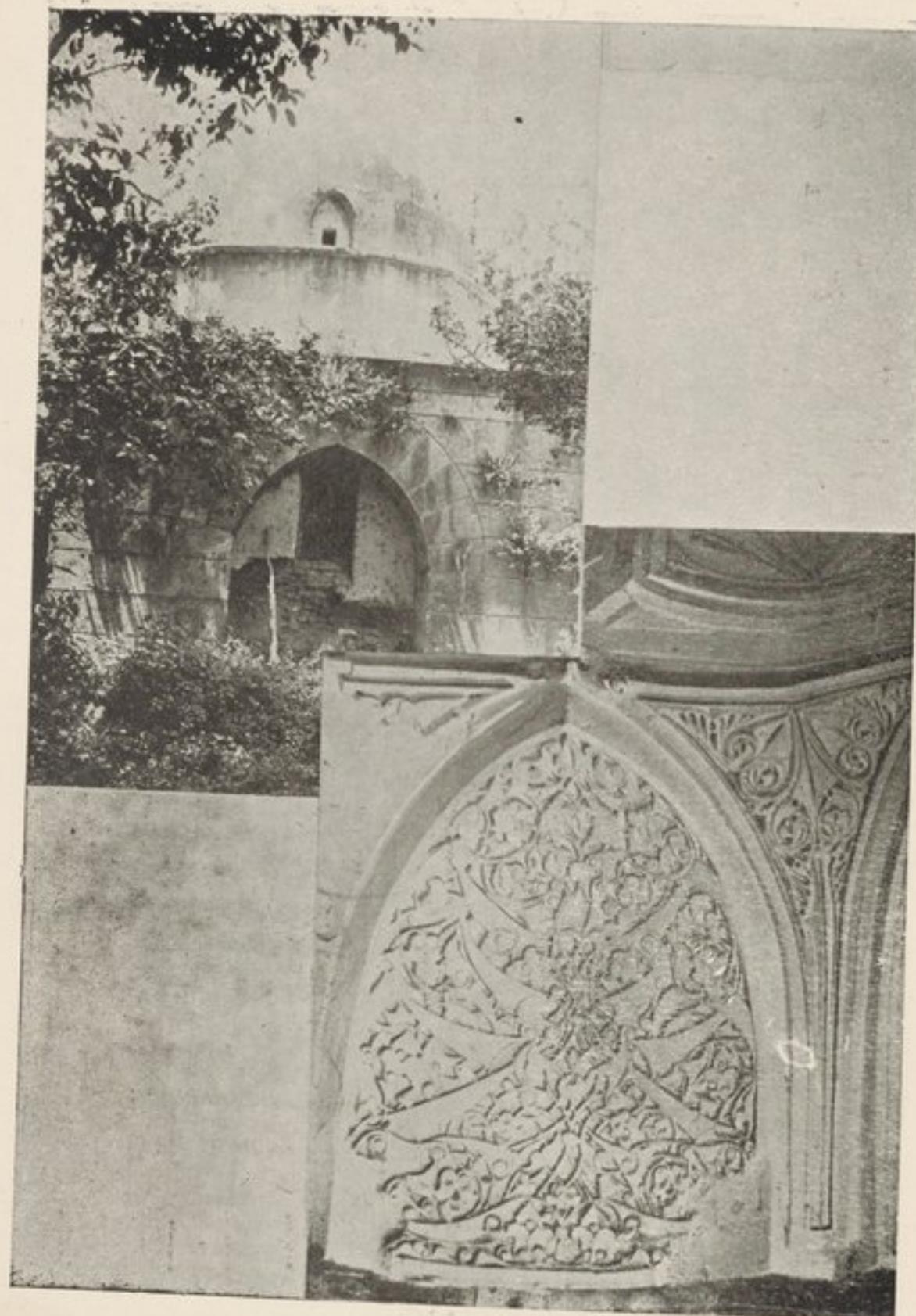
(اللوح ٣٠)

تربة ابن المقدم

تقع شمالي سور ، وشرق مقبرة الدحداح . ويسود العوام الاعتقاد أنها قبر الصحابي طلحة . وقد أنشأها أمير حلب نفر الدين ابراهيم بن الامير الكبير شمس الدين ، محمد بن المقدم ، ودفن فيها سنة (٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) . ثم دفن فيها أيضاً سنة (٦٩٣ هـ = ١٢٩٣ م) حفيده الملك الحافظ غياث الدين شاهنشاه الايوبي .

وهي من الطراز الايوبي . غير ان النموذج الذي بنيت عليه لا يشبه تربات دمشق بل يقترب من أبنية حلب التي يعود عهدها الى زمن نور الدين . ويلاحظ أن قاعدتها مشيدة من أحجار مقطوعة قطعاً دقيقاً مائلاً ، وأن الجدران الأربع التي تؤلف بناءً صريحاً استبدلت بأقواس مفرغة ، وأن هذا المربع يتحول عن طريق حطتين لكل منها اثنا عشر ضلعاً ، الى شكل مستدير ، وهو شكل القبة المزينة بصفين من المقرنصات المطلية باللحس . (الصورة الأولى من اللوح ٣٠) . والخلاصة إن تربة ابن المقدم أقرب الى أبنية العراق الاجرية منها الى أبنية دمشق الحجرية الايوية الأخرى . وتعتمد على أضلاع الحطتين من الداخل زخارف جصية مقوشة باقان زائد . ويلاحظ أن مجموعة الزخارف في الحطة الأولى أكثر تعقيداً منها في الحطة الثانية . (الصورة الثانية من اللوح ٣٠) .

وقد أصلحتها مديرية الآثار العامة في السنوات الأخيرة .



(اللوح ٣١)

البيمارستان القيمرى

يقع في الصالحة على سفح جبل قاسيون ، جانب جامع محي الدين بن عربي . وهو من بناء الامير سيف الدين أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمرى ، بين سنتي (٦٤٦ - ٦٥٧ هـ) وبذل فيه هذا الامير أموالاً طائلة ، وأوقف له أملاكاً كثيرة ، من قرى وبساتين وطواحين . وقد نقشت صيغة الوقف في أسطر عريضة من الخط النسخي الجميل على مدخل الباب الخارجي . ويعد هذا البناء من أعظم المنشآت المدنية الدمشقية في العصر الأيوبي . وينتقص أن مهندسه احتذى مثل البيمارستان النوري . فجعل تخطيطه على نظام التعماد ، وأقام فيه أوواين جانبية أصغر من أوواين البيمارستان المتقدم ، ونظم أجزاءه بصورة متاظرة ، نسبة إلى محور واحد ، ونصب له عقوداً داخلية بيضوية ومتضادة .

أما بابه الخارجي فقد أحيط بساريتين صغيرتين ، وجعلت فوقه نصف قبة فيها مقرنصات تشبه من جهة مقرنصات الأبنية الأيوبي ، ومن جهة ثانية مقرنصات عمارات الماليك التي ستشيد فيما بعد ، مثل المدرسة الظاهرية وتربة قلاوون . وفي آيوانه الرئيسي الجنوبي ثلاث نوافذ ، فوقها عقود متصالبة ، بناوها شديد الانقان . ويوجد عند منتهيا زخارف خطية مكتوبة بالنسخى المذهب على أساس أزرق . وتتألف من آيات قرآنية . وفوقها زخارف جصية منحوتة تجتمع في قلادتين ، على شكل مواضع نباتية مختلفة . (الصورة الأولى من اللوح ٣١) . وترىنا الصورة الثانية من هذا اللوح منظر طرف الصحن مع الآيوان الشرقي .



القلعة البرج الشمالي الشرقي

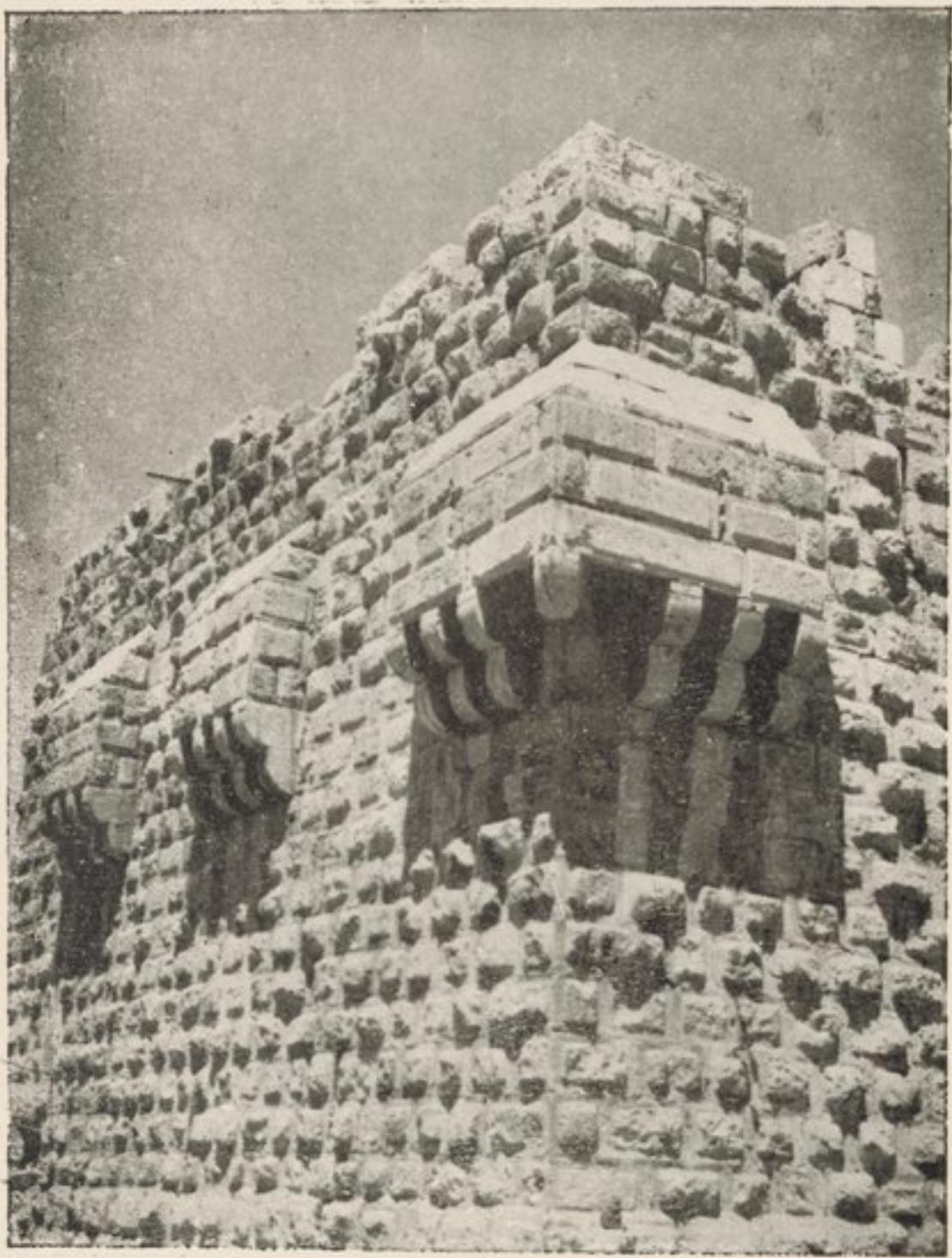
بنيت قلعة دمشق على سوية المدينة ، خلافاً لأكثـر القلاع الإسلامية المعاصرة ، كقلـاع حلب وشـيزر وحـماه وحـصـن التي شـيدـتـ على بعض المـرفـعـاتـ . ويـقالـ إنـهـ كانـ يـوجـدـ فيـ مـكـانـهـ خـالـلـ الـأـزـمـنـةـ السـابـقـةـ حصـنـ يـزـنـطـيـ وـرـوـمـانـيـ . غيرـ أنـ المؤـرـخـ سـوـفـاجـهـ نقـيـ مؤـخـراًـ وجودـهـ .

وـكـنـاـ رـأـيـناـ كـيـفـ أـنـ السـلـجـوـقـيـنـ كـانـواـ أـولـ منـ فـكـرـ بـنـاءـ هـذـهـ القـلـعـةـ لـتـحـصـيـنـ دـمـشـقـ . وـلـاـ حـكـمـ الـمـلـكـ الـعـادـلـ أـخـوـ السـلـطـانـ صـلـاحـ الدـيـنـ الـأـيـوبـيـ ، هـدـمـ

الـقـلـعـةـ الـقـدـعـةـ وـبـدـأـ تـجـدـيدـ بـنـاهـاـ مـنـذـ سـنـةـ (٦٠٥ـ هـ = ١٢٠٦ـ مـ) .

وـشـكـلـهـ مـسـتـطـيلـ تـقـرـيـباًـ ، مـسـاحـتـهـ (٢٢٠ـ مـ × ١٥٠ـ مـ) . وـلـهـ اـثـنـ عـشـرـ بـرـجـاـ ، يـتـعـدـ كـلـ مـنـهـ عنـ الـآـخـرـ ثـلـاثـيـنـ مـتـرـاـ . وـكـانـ تـنـصـلـ بـعـضـهـ بـأـسـوارـ مـرـفـعـةـ ، سـكـهـاـ (١٩٤٠ـ مـ) . وـقـدـ اـسـتـخـدـمـتـ مـقـرـأـ لـحـيـةـ دـمـشـقـ السـيـاسـيـةـ وـالـادـارـيـةـ . وـكـانـ فـيـ جـنـوبـهـ الـغـرـبـيـ قـصـرـ لـمـ يـقـمـ مـنـهـ إـلـاـ بـعـضـ الـحـجـرـاتـ الـمـتـابـعـةـ الـمـسـقـوـفـةـ بـالـقـبـابـ . وـيـظـنـ أـنـ قـاعـاتـ الـامـتـقـابـ كـانـتـ أـمـامـ هـذـهـ الـحـجـرـاتـ كـاـنـتـ نـدـلـ عـلـىـ ذـلـكـ بـعـضـ الـآـثارـ .

وـيـرـيـنـاـ اللـوـحـ (٣٢)ـ بـرـجـاـ فـيـ الشـمـالـ الشـرـقـيـ ، بـنـاهـ الـمـلـكـ الـعـادـلـ سـنـةـ (٦٠٦ـ هـ) . وـهـوـ مـنـ أـعـظـمـ الـأـبـرـاجـ وـلـمـ يـزـلـ بـنـاؤـهـ فـيـ حـالـةـ جـيـدةـ . وـشـكـلـهـ مـسـتـطـيلـ (٢٣ـ مـ × ٢٦ـ مـ) . وـارـفـاعـهـ الـحـالـيـ (١٨ـ مـ) . وـيـشـتـملـ دـاخـلـهـ عـلـىـ ثـلـاثـةـ طـوـابـقـ ، فـيـ كـلـ مـنـهـ خـمـسـ كـوـاتـ لـرـميـ السـهـامـ . وـسـطـحـ الـبرـجـ الـخـارـجيـ مـحـاطـ مـنـ أـعـلاـهـ بـشـرـارـيفـ الـدـفـاعـ ، وـفـوقـهـ كـلـهاـ كـوـاتـ مـسـتـطـيلـةـ أـخـرىـ مـسـنـةـ .

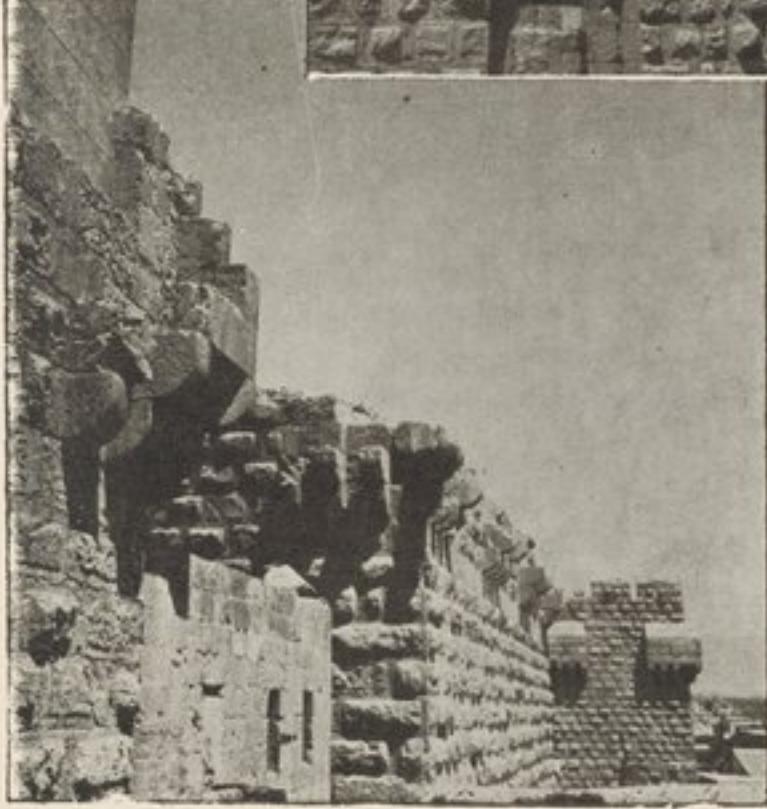
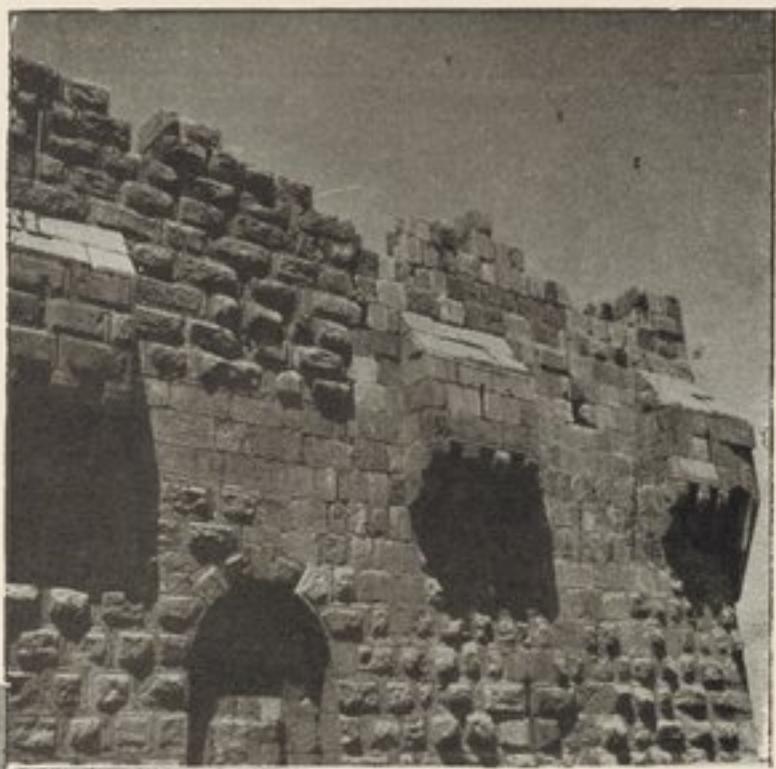


قلعة دمشق - الأبراج الشرقية

يرينا هذا اللوح منظراً آخر للبرج المتقدم من الجهة الشرقية، كما يرينا منظراً ثالثاً لطرف القلعة الشرقي. ويحوي في وسطه برجين كبيرين، يحيطان بباب القلعة الشرقي، الذي تزينه زخارف منحوة ومقرنصات بدعة جداً.

أما السور الغربي فلم يبق شيء من آثاره. وأخيراً فان السور الجنوبي هو أحسن الأسوار محافظة على شكله القديم، وأكثرها انسجاماً واتساقاً. ويظهر من بعض تفاصيل العمارة والنحت في قلعة دمشق أن هذه القلعة قد احتذى في بنائها عادج التحصينات العسكرية الأيوبية، التي ظهرت في سورية الشمالية. مما دعا المؤرخ (سوفاجيه) أن يقول إن الملك العادل استحضر بعض البناءين والمهندسين من حلب ليساهموا في تشييدها.

ورمت بعض حصون هذه القلعة وأسوارها، أو أعيد إنشاؤها عدة مرات، منذ زمن بنائها حتى أول القرن السادس عشر. فقد جدد الملك الظاهر بيبرس عدة حصون في شمالها وجنوبها. وأصلح السلطان قلاوون بعض أبراجها الشرقية والقصر الملكي. وعمل ابنه الناصر ومن بعده نوروز الحفيظي وقصوه الغوري أيضاً في إصلاح عدة مواضع من السور والأبراج.

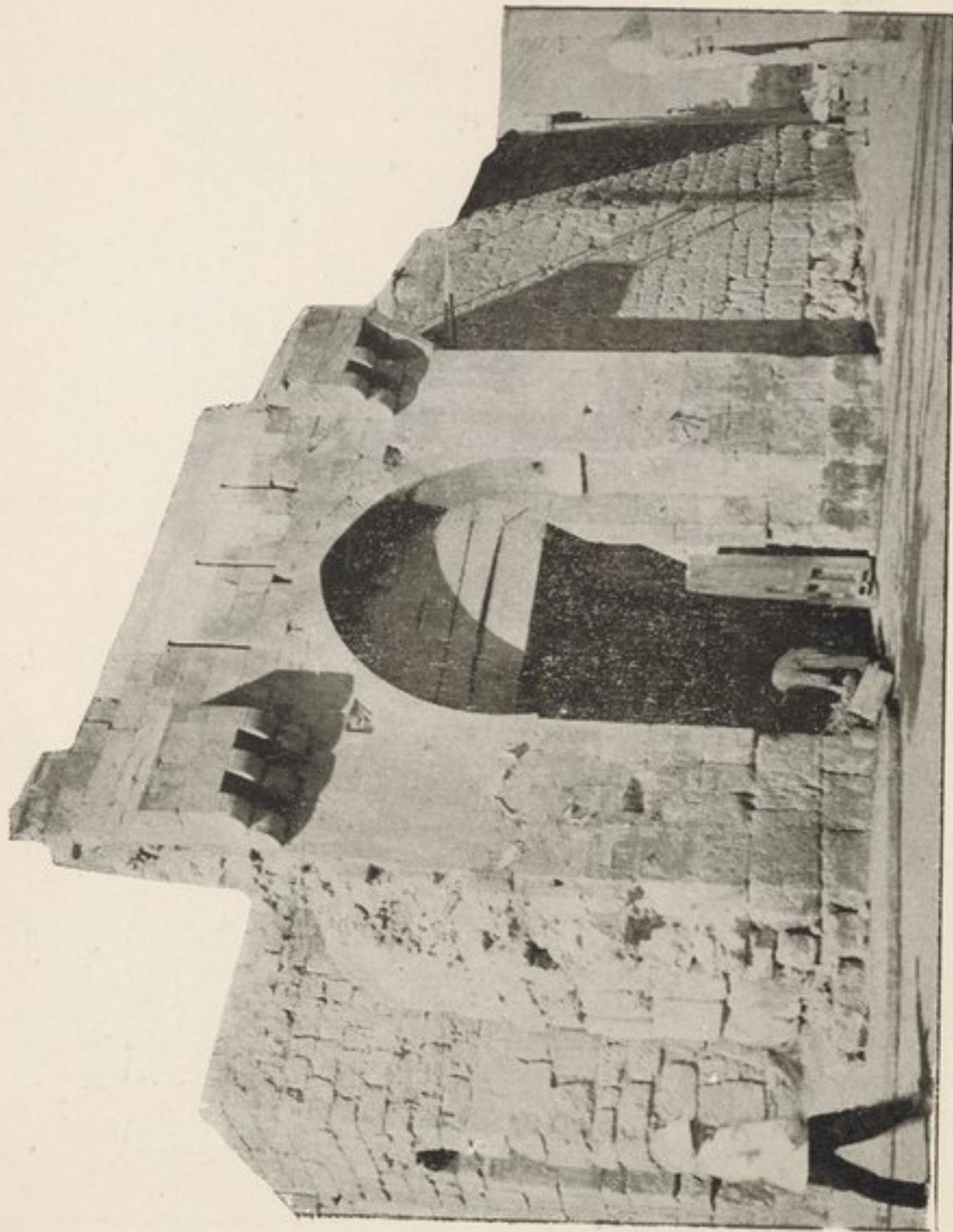


(اللوح ٣٤)

باب توما

يقوم في الجهة الشمالية الشرقية من سور المدينة ، مكان باب قديم يعود عهده الى العصر الروماني . وقد اعيد بناؤه على شكل جديد في زمن الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى الايوبي سنة (٦٢٥ هـ - ١٢٢٨ م) . كما تشير الى ذلك كتابة في داخله . وجدد في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون باشارة الامير (نكرز) نائب الشام، في سنة (٧٣٤ هـ - ١٣٣٣ م) ، كما تنص على ذلك كتابة عتبة الباب من خارجه .

وهو نوذج من نماذج المنشآت العسكرية الايوبيّة التي تقدم صنعها تقدماً مدهشاً ، في أول القرن الثالث عشر الميلادي . ويرى في اللوح (٣٤) قوسه المجزوء ، وشرفاته البارزة تأكيداً للثبات دور عسكري وتزييني معاً ، وبينهما كوات الدفاع المستطيلة . أما طبقة الباب العلوية فهي مهدمة ومصلحة .



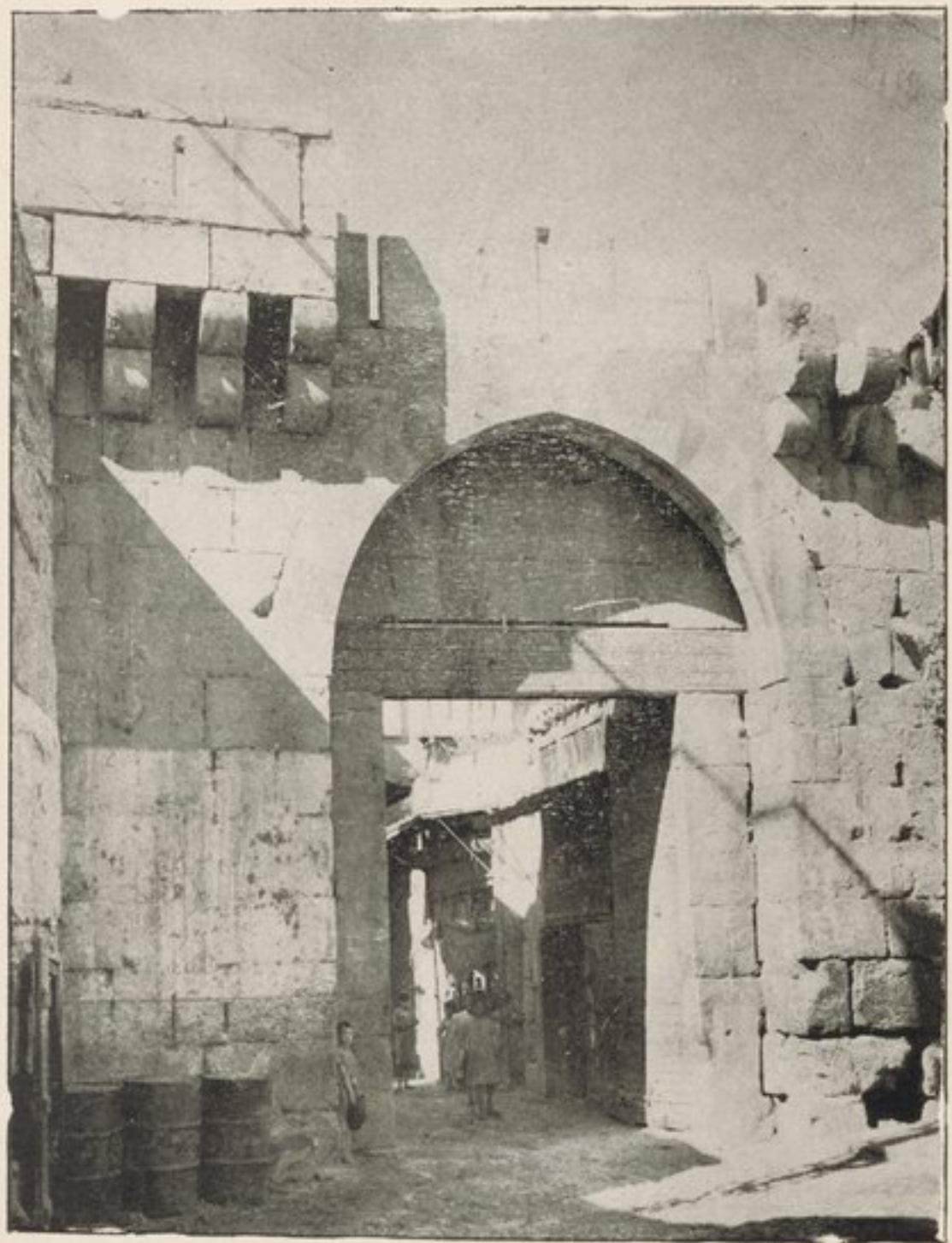
(اللوح ٣٥)

باب الميّة لامة

وهو من أبواب دمشق الشمالية ، ويقوم في منعطف من السور ، يجعل اتجاهه نحو الشرق . ويقول ابن عساكر مؤرخ دمشق في تسميته :

« سمي بذلك تفاؤلا ، لأنَّه لا يَتَهَيَا القتال على البلد من ناحيته ، لما دونه من الأنهار والأشجار » .

ومن المؤكد أنه لم يكن في مكانه باب آخر في العهد الروماني . ولا يبعد أن يكون قد بيِّن لأول مرة في زمن نور الدين . وقد جدد بناؤه كله في زمن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . سنة (١٢٤٣ هـ = ٦٤١ م) . وعلى عتبته من خارجه كتابة تشير إلى ذلك . وهو ثاني باب أيوبي انشئ بعد باب توما ، ويشبه بقوسه وكواهه وشراريفه . ويعتاز عنه أنه لم يرمم في زمن الملاليك . ولم يزل في حالة جيدة وقد أعادت مديرية الآثار العامة كواهه المتهدمة في السنوات الأخيرة .



(اللوح ٣٦)

برج الصّاحِلِيُّ أَيُوب

يُسْتَنِدُ هَذَا الْبَرْجُ عَلَى الزَّاوِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْمَدِينَةِ ،
وَيُصْلِي سُورَهَا الشَّرْقِيَّ بِسُورَهَا الشَّمَالِيِّ .

وَقَدْ أَنْشَأَهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ أَيُوبُ سَنَةَ (١٢٤٦ هـ = ١٩٣٠ م)
كَمَا تَشِيرُ إِلَى ذَلِكَ كِتَابَةً بِالْخُطِ النَّسْخِيِّ عَلَى قَطْعَةِ مِنَ الْمَرْصَدِ
دَاخِلِ اِطَارِ فِي جَهَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ .

وَشَكْلُهُ مَرْبَعٌ . وَهُوَ يَعْدُ نَوْذِيجًا مِنْ نَاعِذِجِ الْأَبْرَاجِ
الْأَيُوبِيَّةِ الدَّمْشِقِيَّةِ . وَقَدْ اسْتَوْحَى فِي بَنَائِهِ مِنْ أَشْكَالِ وَتَخْطِيطَاتِ
أَبْرَاجِ الْقَلْعَةِ الَّتِي سَبَقَتْهُ . وَيُخْتَلِفُ عَنْهَا بَعْضُ التَّفَاصِيلِ . وَمِنْهَا
أَنَّ الْوِجْهَاتِ الْأَخْارِجِيَّةِ لِأَحْجَارِهِ مَلْسَاءُ وَغَيْرُ بَارِزَةٍ . وَهَذِهِ
الْأَحْجَارُ مَنْحُوَةٌ نَحْتًا جَيْدًا ، وَمَا تَرَالُ مَحَافِظَةً تَعَامِلًا عَلَى
شَكْلِهِ الْقَدِيمِ .

وَكَانَتْ تَوَجُّدُ عَلَيْهِ شَرْفَاتٌ مُتَصَلَّةٌ لَمْ يَبْقِ مِنْهَا إِلَّا
مَسَانِدُهَا الْمَلْعَقَةُ فَوْقَ كَوَاةِ الطَّابِقِ الْمُوْسَطِ .



السـور

هدم العباسيون سور دمشق حجراً في القرن الثامن الميلادي . وأعاد الفاطميون بناءه في القرن العاشر أول مرة ، ونور الدين مرة ثانية . وقد حيد هذا السور عن تحضيره الأصلي الذي كان له في العصر الروماني . وذلك رغبة في دعمه ، وجعله متافقاً مع اتساع المدينة وامتدادها . ثم رممه الأيوبيون وجدوا تحصيناته ووسعوه خاصة إلى جهة الشمال ، وجعلوه يحاذى فرع بردى الأصلي ، بدلاً من أن يحاذى كما كان الأمر في زمن الرومان نهر عقرياً الذي لم يعد يجاريه إلا بعد باب السلام (اللوح ٣٧) .

ولما أتى الماليك ثم العثمانيون ، قاموا كذلك باصلاح ما تداعى من منشأته . وإذا كنا لا نتمكن اليوم أن نعي بوضوح تام ، المراحل المتعاقبة التي مر بها ، منذ تحوله عن تحضيره المستطيل القديم إلى تحضيره المتعرج الحالي ، فإننا نستطيع أن نبين تاريخ بناء كل جزء من أقسامه الباقية . فصفوف أحجاره السفلية الضخمة التي أخذت من سور القديم ، عهدها قبل القرن الثاني عشر . وصفوف الأحجار التي تلتها والتي يتراوح ارتفاعها بين (٥٠ - ٦٠ سم) من زمن نور الدين وزمن الأيوبيين . ومداميك الأحجار الصغيرة ذات الأبعاد (٢٠ - ٣٠ سم) من عهد الماليك . أما بقية الأحجار العلوية غير المنحوتة فقد وضعت بعد الفتح العثماني .



(اللوح ٣٨)

جامع تكز

يقع هذا الجامع غربي سور المدينة في شارع النصر اليوم . وقد بدأ تشييده الأُمير سيف الدين تكز نائب السلطان في الشام في سنة (٥٧١٧ هـ = ١٣١٧ م) . وانتهى منه بعد سبع سنوات ودفن فيه . وكان من أكبر جوامع دمشق . وقد تجلت في بنائه أصول فن المالك في العماره ، التي امتهنها تقاليد العماره الابويه ، وظلت سائدة في دمشق مدة طويلاً . إذ أن صحنه كان واسعاً ومحاطاً بالآروقة ويشقه نهر بانياس . وكذلك حرمته فإنه مستطيل الشكل ، ومقسوم إلى ثلث بلاطات طولانية ، بواسطة صفين من القناطر محولين على عدد من الأعمدة . ويتصدر بالصحن بрамية أبواب . وله محراب في صدر جداره الجنوبي لم يبق إلا جزء من فسيفسائه ، التي تقطي بها بعض الألوان اليوم (الصورة السفلية من اللوح ٣٨) . وشعار الأُمير تكز مرسوم في أعلى بابيه من أبوابه .

اما جبنته فهي تقع إلى جنوبه ، وهي واسعة ومبنيّة من صفوف من الأحجار السوداء المتعاقبة ، مع صفوف أخرى من الأحجار الصفراء حسب قواعد فن المالك . وفيها بابان صغيران ينفتحان إلى الحرم ، وبابان جانبيان كبيران يؤديان إلى الصحن وتعلوهما قبتان من المقرنصات ذات الأسلوب المبتكر .

وللجامع منارة في جداره الشمالي . وقاعدتها مربعة ، وجذعها مقلع . وفيها زخارف قاشانية زرقاء ، ونقوش ومقرنصات مختلفة (الصورة العلوية من اللوح ٣٨) . وقد احترق هذا الجامع سنة ١٩٤٥ . وقسم صحنه ، وظهرت فيه آثاره حديثة ، أفقدته كثيراً من روعته الماضية .



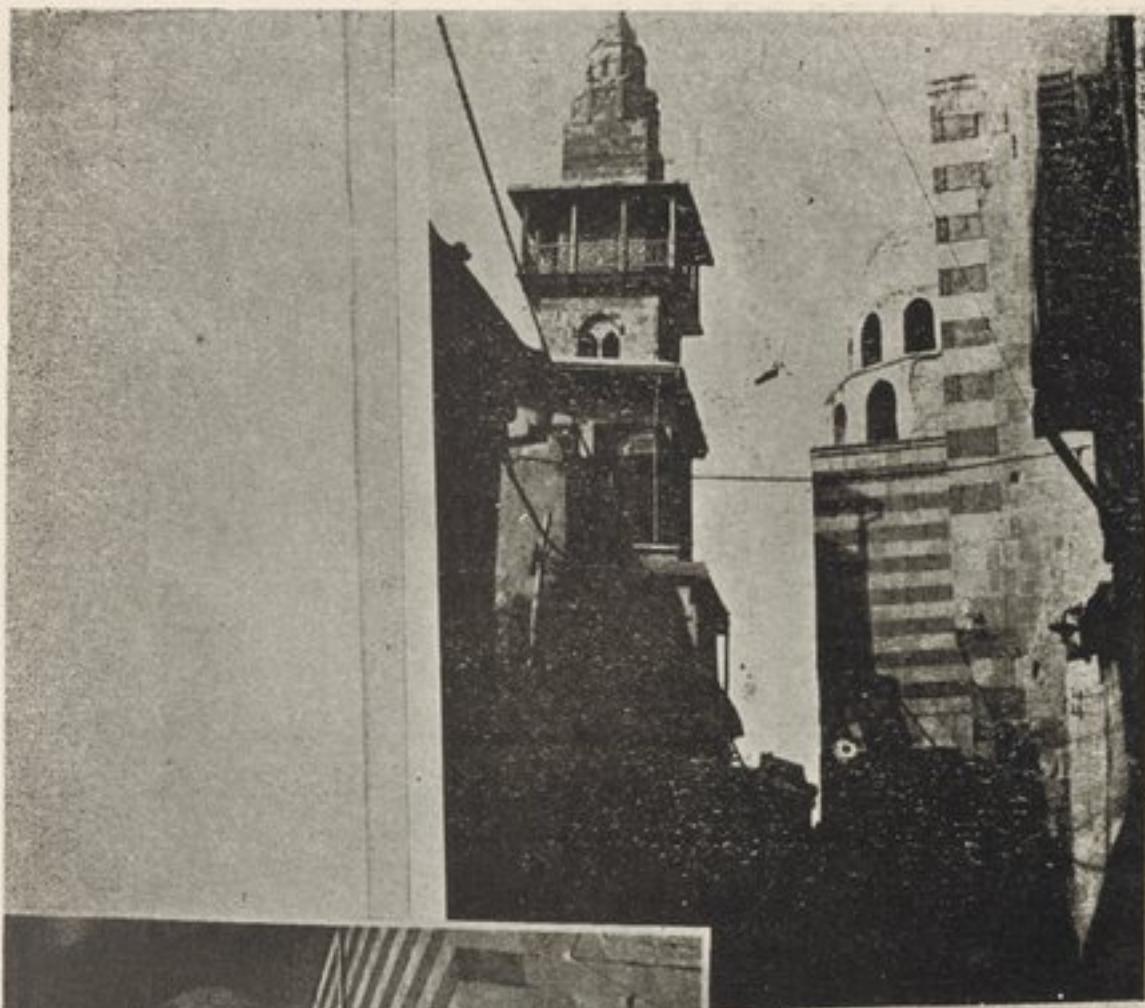
جامع التبرزي

يقع هذا الجامع في رأس الشوبك، شمالي قبر عاتكة، وقد شرع بانشائه الامير غرس الدين خليل التبرزي حاجب حجاج دمشق في سنة (٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ م). وأضيّفت إليه مئذنة بعد تسع سنوات.

ويلاحظ فيه أن ناته تحرروا من قواعد الفن الابوبي التي سادت العمارات الدمشقية أكثر من نصف قرن. وابعوا أصول فن المالك الذي ازدهر خاصة في القاهرة، واتخذوا في ذلك عناصر جديدة في التخطيط والبناء والزخرفة. فتخطيطه مختلف عن سائر تخطيطات الجامع الدمشقية التي سبقته، إذ أنه ليس له صحن واسع. وواجهته مبنية من أحجار ذات لونين مختلفين. وفي طرفها الغربي مزولة تحت قطرة بدعة (الصورة الثانية من اللوح ٣٩).

أما مئذنته فهي من أجمل مآذن دمشق، وشكلها مربع، على حين أن كل مآذن المالك المصلحة. وعليها زخارف جميلة كثيرة، منها كتابة تاريخية، وينها وبين الجامع طريق.

وتتوسط تربه الواقع جرياً على سنة المالك جداره الشمالي تجاه المحراب. ولها قبة عالية مستندة على حطتين مضاعفين، وفي كل ضلع كوة. وجدرانها مكسوة بألواح القاشاني المصنوع في دمشق، والذي بدأ دوره في تزيين الابنية الدمشقية.

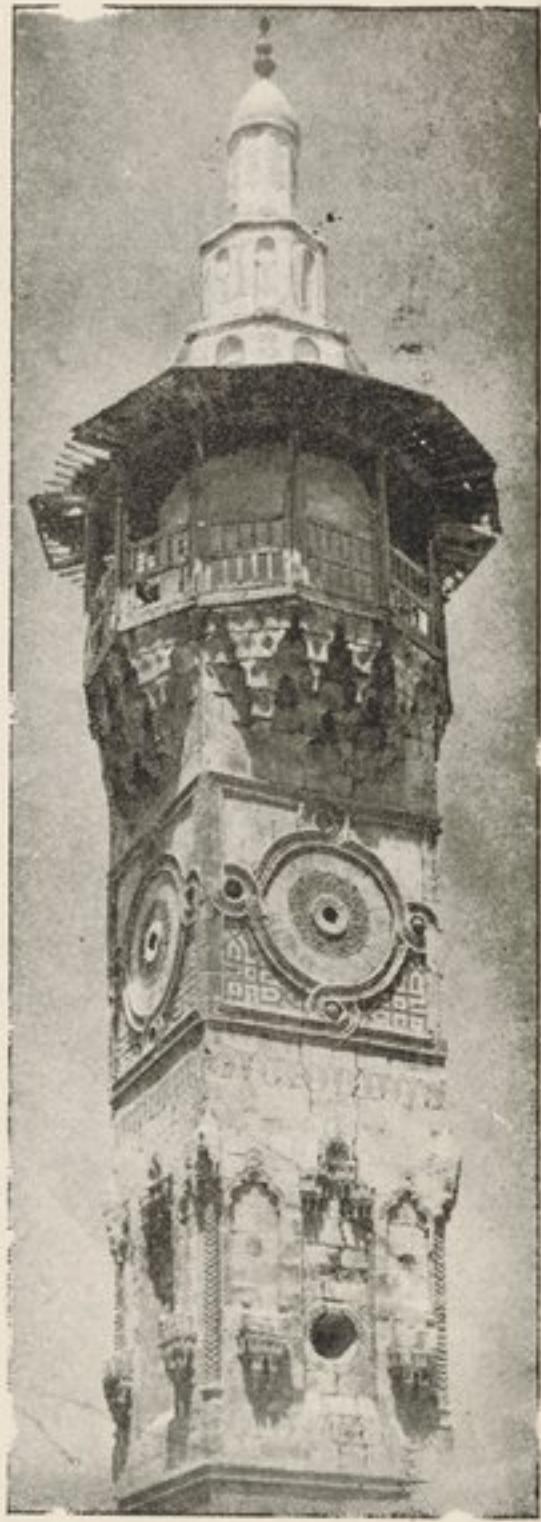


(اللوح ٤٠)

مئذنة القاعي و مئذنة هشام

تقع هاتان المئذنان في حي الشاغور ، ويرجع عهدهما إلى القرن التاسع الهجري أو الخامس عشر الميلادي . وقد بنيت الأولى سنة (٨٣١ هـ = ١٤٢٧ م) . وشكلها مضلع ، وفي وسطها كتابة منقوشة . أما الثانية فأنها شيدت سنة (٨٧٥ هـ = ١٤٧٠ م) . وهي مربعة ، ومزينة بزخارف مقرنصة ومطعمة بألواح الفاشاني الأزرق .

و تعد هاتان المئذنان مع مئذنة قايتباي (مئذنة العروس في الجامع الأموي) أمثلة رائعة عن فن العمارة في عهد المماليك ، وسعي مهندسيهم لتوسيع تأثيرات عناصرها الزخرفية . وذلك بتنظيم مجموعات كاملة منها ، تدلنا اليوم على براعتهم واقتانهم في صناعتهم .



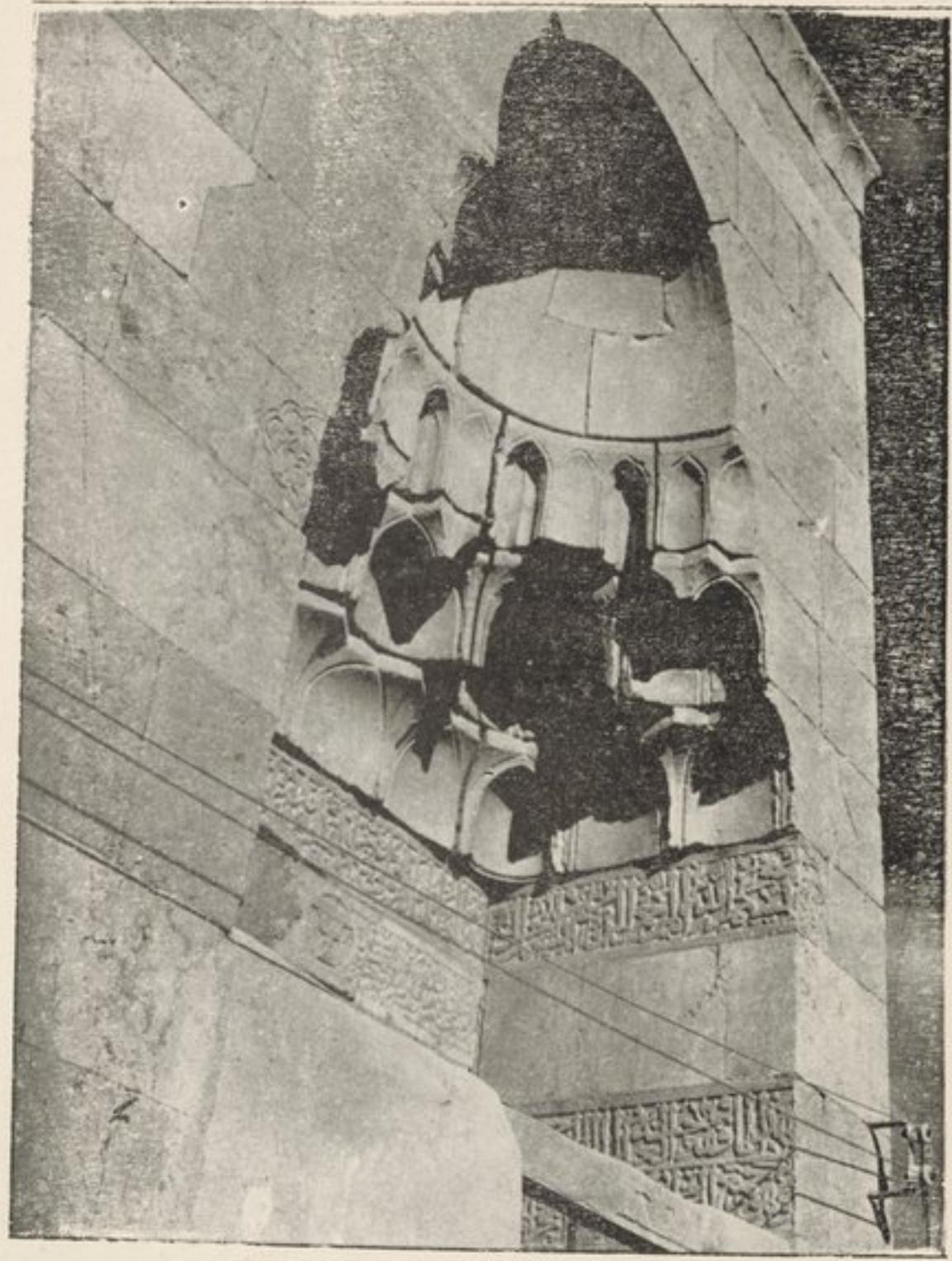
(اللوح ٤١)

تربة الملك الظاهر

تقع تجاه المدرسة العادلية الكبرى (وهي دار الكتب الوطنية اليوم) . وقد بُنيت لما قُتل الملك الظاهر بيبرس سنة (٦٢٦ هـ = ١٢٧٧ م) ودفن في القلعة . فأراد ابنه الملك السعيد بر كة قان أن يخلد ذكره . فاشترى دار العقيق وكانت قصرًا لا يُوَبِّين . وأنشأه مدرسة وتربة . فتم ذلك في العام نفسه ، ودفنت رفات الملك الظاهر فيها . ثم دفن الملك السعيد جوار أبيه فيما بعد .

ولا ريب أن تحويل الدار إلى مدرسة كان من شأنه أن غير من شكل البناء الأصلي . فرفعت حوله الجبهتان الغربية والجنوبية ، وأقيمت فيه قاعة الفريح التي تعلوها قبة على حطتين مضلعتين . ويظهر أن الحمام الملحق بالمدرسة وإيوانها من أجزاء الدار القديمة . ويلاحظ أن المهندس استوحى من تقاليد الفن الايوبي الماضية التي كانت ماثلة في الدار نفسها ، وفي بناء المدرسة العادلية المقابل .

ويدل ذلك على أنه توخي أن يجعل هذين البناءين المتقابلين منسجمين كل الانسجام ، وأن يؤلف منها مجموعة عمرانية ، يكمل فيها جمال الأولى روعة الثانية . والحقيقة أن واجهتي المدرسة الظاهرية من أجمل ما بني الماليك . إذ أنها مشيدتان بال أحجار المنحوة المقنة ، وفي أعلىها كوى مستديرة ، تحيطها زخارف هندسية متألقة من دوائر متداخلة . أما المدخل الرئيسي فهو مبني بأحجار بيضاء وصفراء . ويعلو الباب ثلاثة صفواف عريضة من الكتابات النسخية المزهرة الجميلة (اللوح ٤١ الصورة ٢) . وفوقه قبة نصفية من المقرنصات البدعة البسيطة . أما قاعة الفريح فهي مربعة . وتكتسوجدرانها زخارف من المرمر الملون والحجر المنحوت والفصيوفس ، الزجاجية ، التي تبدو وكأنها مبكرة في هذا التاريخ على أبنية دمشق .

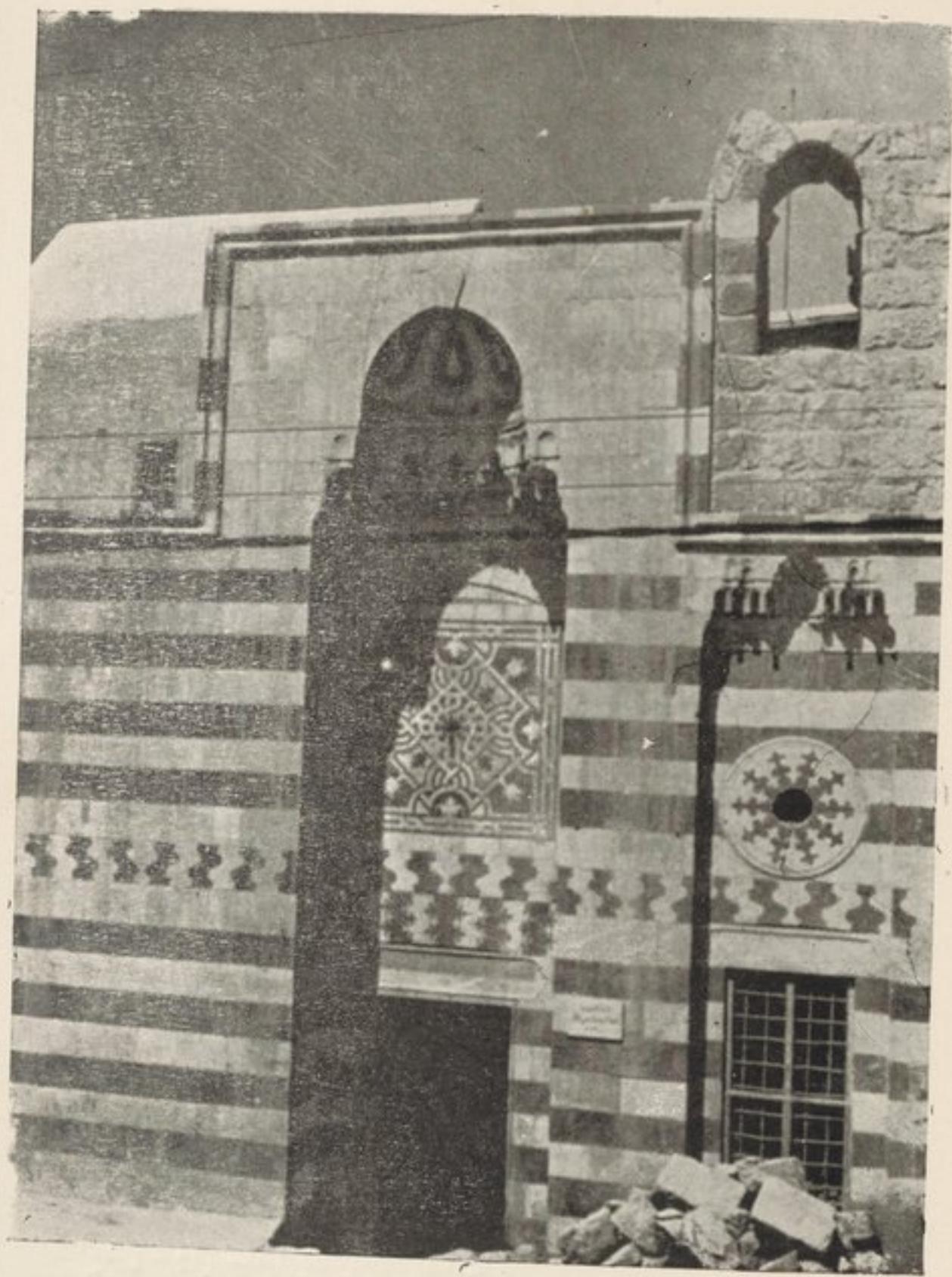


المدرسة الحنفية

بناها نائب الشام الامير سيف الدين جقمق سنة (١٤٢١ = ٨٢٤ هـ) مكان مدرسة قديمة احرقت وقت استباحة تيمورلنك دمشق . وصرف عليها مالاً كثيراً ، ووقف لها أوقافاً عديدة . فكانت من أوائل ابنية دمشق في القرن الخامس عشر الميلادي .

وتحتخص هذه المدرسة بزيارة فن الماليك في العمارة ، من حيث هندسة البناء وزخرفه . إذ أن تصميماً يطبع نظام التعامد ، ويشتمل على صحن في وسطه بر كماء ، وحوله أربعة أبواب ، قائمة على أعمدة ضخمة ، ذات تيجان منحوتة وفوقها أقواس ملونة بالونين ، تحمل قناطر صغيرة مزدوجة مفصولة بسوريات جميلة . وستند السقف عليها (الصورة الثانية من اللوح ٤٣) وفي ركن البناء تربة الواقف وبعلوها قبة . ولهذا البناء جبهتان مبنيتان بالحجارة الملونة ، الأولى : شمالية ، وفيها المدخل الرئيسي . وهو عالٌ وفوقه مقرنصات بدائية ، ونصف قبة مضلعة ، والثانية شرقية فيها نافذة لها إطار ضامر وبعلوها صف عريض من الخط الكوفي الذي يتدلى على كل الجبهة ، ومقرنصات جميلة مدللة ، ثم نصف قبة متوجة بزخارف حجرية هندسية متشابكة ، وذات ألوان مختلفة (الصورة الأولى من اللوح ٤٢) .

وقد كان المصلى والتربة منينة بجموعات غنية من الزخارف المختلفة ، التي اشتهرت بها الصناعات السورية وأهمها الزخارف المرمرية المنقوشة والمحفورة والمطعمة . وقد تهدم قسم كبير من هذه المدرسة أثناء الحرب العالمية الثانية . ولم يتيسر إلى الآن إعادتها إلى ما كانت عليه .



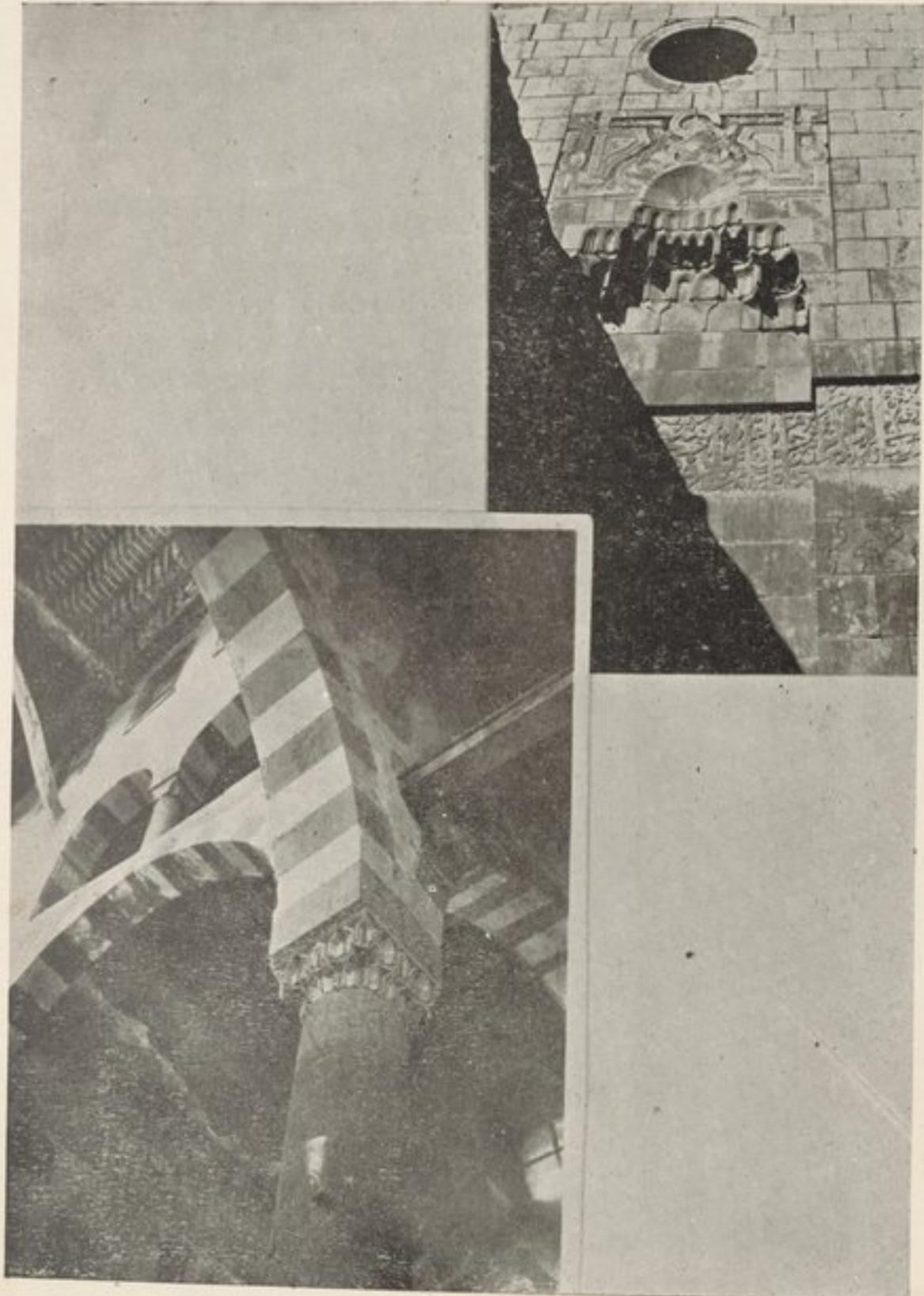
(اللوح ٤٣)

الترفة الأفريدونية

شيدها التاجر العجمي شمس الدين افريدون بن محمد الاصفهاني في حي (المنانية) ، سنة (١٣٤٤ هـ = ١٩٢٣ م) ، وجعلها داراً لتعليم القرآن وبي فيها تربة ، ودفن فيها بعد خمس سنوات .

وقد أنت نوذجاً صادقاً لأساليب العمارنة في عهد المماليك ، التي انتشرت في أبنية مصر وفي البلاد السورية كالقدس ، وطرابلس الشام ، وحلب ، وغيرها . وهندسة هذه المدرسة الداخلية لا تختلف عن تحنيطات غيرها . ويتبع تصميمها نظام التعامد . وقوامه أربعة أو اثنين ، يتوسطها صحن مسقوف . أما جبهتها الخارجية التي تتجه إلى الشرق على الطريق العامة ، فقد عني بتزيينها عنابة باللغة ، وأفرط في زخرفتها إفراطاً جعلها رشيقه جداً ، وظريفة ظرفاً أخرجها عن وقار المعاهد الدينية .

وهذه الجهة ضخمة البناء ، ويعلوها إفريز طريف . حجارته على لوين ، يتد على طولها ويتوج الباب . وليس له مثيل في سائر العمارات . وفوق عتبة الباب كتابة منقوشة بخط نسخي دقيق ويعلوها صفان من المزرات الملونة ثم لوح كبير مربع من الزخارف الهندسية الحجرية المطعمية والملونة المتشابكة . ثم تلي مقرنصاتها الظريفة ذات الدلaites والصفوف الثلاثة . وفوقها قبة نصفية مزينة ببورات كبيرة . وفي طرف الباب نافذتان أبعادها مختلفة ويرى في اللوح (٤٣) ، أن اليمين منها في صرح ضامر . وفوق عتبتها المزرات ، ثم قلادة في وسطها كوة ، محاطة بتسعة أحجار سوداء من الشطرينج على سطح أبيض . وفي سقفها بعض المقرنصات .



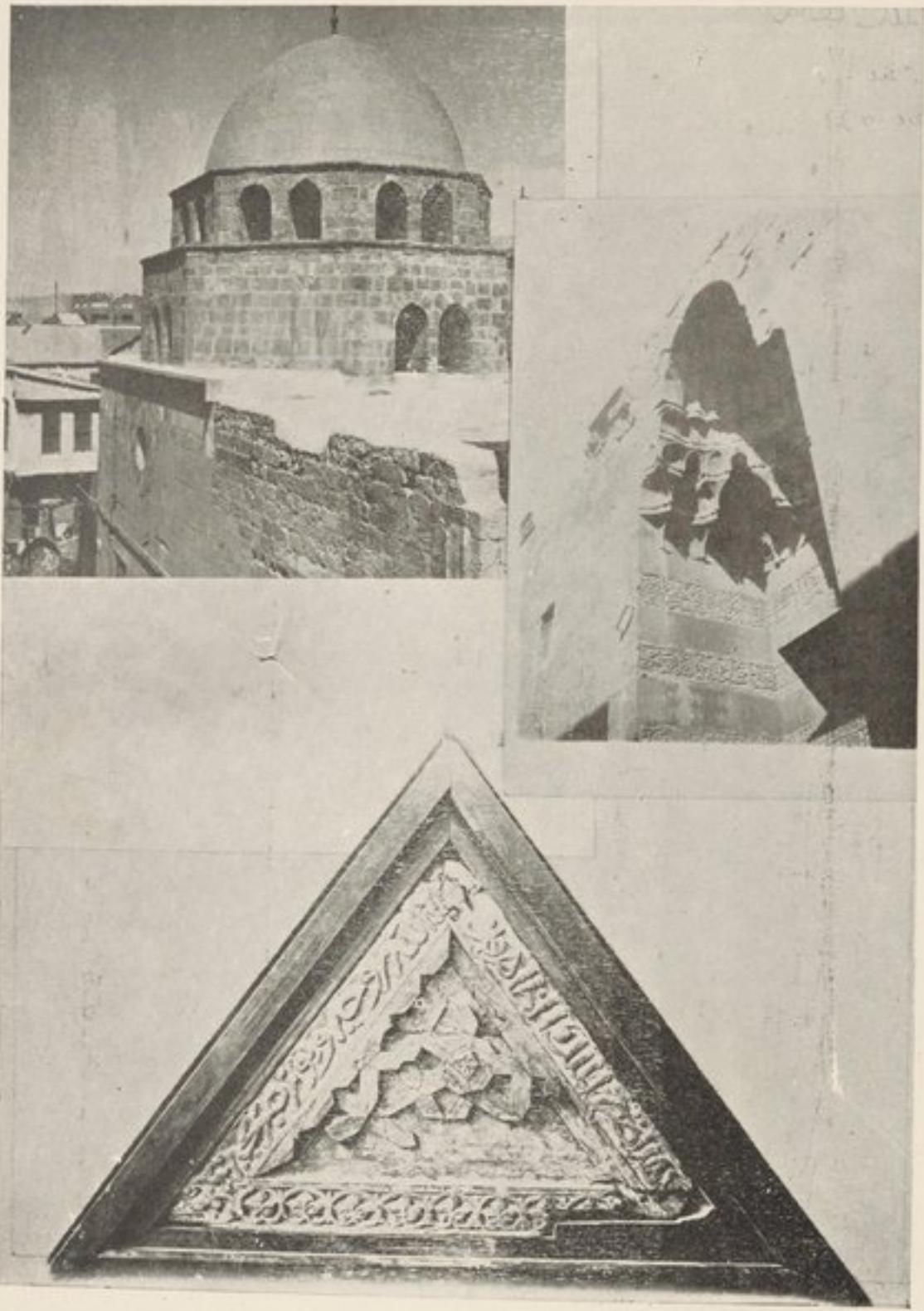
اللوح (٤٤)

تربة اوغورلو

تقع هذه التربة في الصالحة شمالي الجامع المظفري .
وقد بناها الامير سيف الدين اوغورلو العادلي ،
وُدفن فيها سنة (١٣١٩ هـ = ١٩٥٧ م) .

وهي من أجمل ترب القرن الرابع عشر الميلادي ،
وتفرد عن أبنية الماءلوك الأخرى ، ببساطة زخارفها
وتناسب أبعادها . ولها جبهة غربية مشادة بالحجارة
السوداء والبيضاء ، الضخمة ، المنحوتة جيداً . وعلى عينها
مدخلها الكبير المزين بأشرطة أفقية من الكتابات
التاريخية المرسومة بخط نسخي عريض مزهر . وفي
وسطها شعار الامير . وفوقها ثلاثة صفوف من
المقرنصات الجميلة التي تعلوها قبة نصفية .

ولم تزل هذه التربة بحالة جيدة ، ولها مكانة
فريدة بين أبنية الماءلوك .





دِمْشَقُ فِي الْعَهْدِ الْعَمَانِي

استولى العثمانيون في زمن السلطان محمد الثاني على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، ثم اندفعوا لغزو الأقطار الأوربية والشرقية . ولم يلبثوا بعد مدة قصيرة أن أرسوا إمبراطورية عظيمة امتدت على جزء كبير من القارات الثلاث . وقد ضمت إليها سوريا سنة (١٥١٦ = ٥٩٢٢ م) على أثر معركة (مرج دابق) انتصر فيها السلطان سليم الأول على فانصوة الغوري آخر سلاطين المماليك الذي لقي فيها حتفه . ثم دخل الفاتح دمشق . ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدينة عثمانية ، وظللت تحت سيادة سلاطين القسطنطينية إلى سنة ١٩١٨ .

وكان لانضمامها تحت الراية العثمانية أثر عميق في تحويل حياتها والتأثير في مستقبلها . وقد جعلها العثمانيون مركزاً لأحدى البشائر الثلاثة التي أقاموها في سوريا . وصار يتعاقب على حكمها بشواتٍ معظمهم جهلاء ليس لهم إلا هم جمع المال وابتداذه بسرعة ، متخذين في ذلك كل الطرق والوسائل . وذلك لأن الباب العالي كان لا يستقيم طويلاً في ولايتهم ، ويستبدلهم بغيرهم . حتى أنه توالي على دمشق خلال المدة التي مرت بين سنتي (١٠٠٠ - ١١٠٠ هـ) مائة وآل .

وكان يضاف إلى سوء إدارة الولاية عصيان الجنود . إذ أن الانكشاريين كانوا يزيدون الحالة حراجة بتعديهم على السكان ، وفرضهم الاتاوات عليهم . وكثيراً ما كانوا يتنازعون فيما بينهم وينقسمون إلى فئتين أو أكثر . ويخوضون ضد بعضهم المعارك الدامية . كما ان بعض اعراب الادية كانوا يغيرون بين الفينة والفينية على ضواحي المدينة ويروعون سكانها ، فيختل بذلك النظام ويضطرب حبل الأمن .

ولهذه الاسباب كان الأغنياء محروصون على إخفاء مظاهر ثراهم فيجعلون دورهم بين الحرارات الضيقة ويجيئونها بمجدان فقيرة لا تدل على ما تحويه في داخلها من باحات فسيحة مفروضة بالمرمر . وتتوسطها برك الماء الجليلة وتحيط بها الاواني المزينة بالألواح الفاسانية والزخارف المرمرية الملونة والمطعمية والمنحونة ، وتعلو قاعاتها السقوف الخشبية الثمينة الملونة والمنحونة .

وعلى الرغم ما كانت لظام دمشق السياسي من تأثير في حياتها العامة وفي عمرانها ، فإن هذه المدينة نجحت في ظل العثمانيين من أن تجد حياتها الاقتصادية مقومات جديدة ساعدتها على الازدهار . إذ ان موقعها المتوسط في الامبراطورية العثمانية جعلها بأمن من اغارات الاعداء، والتعرض للاحتلال والاستباحة . ولا يخفى أن الحروب التي كانت تحمل عليها هذه الدولة كانت تدور وقائعها في ساحات الدانوب والبلقان . ولهذا نجحت صناعات دمشق من الازدهار ، وأصبحت منتجاتها تغزو أسواق القسطنطينية . كما أن نجاراتها اتسعت بسبب مرور عدد من طرق القوافل الكبرى التي كانت تجذب الشرق الادنى فيها ، وبسبب نشاط التجارة بين المرافق العثمانية والمرافق الاوروبية ، ويجري التجار الاوربيين الى السواحل السورية ليستبدلو مصنوعاتهم بالمواد الاولية التي تكثف فيها . وكانت دمشق تصل بهم عن طريق صرفا صيدا .

وبضاف الى ذلك أيضا أنها غدت ملتقى الحجاج المسلمين ، ونقطة تجمعهم قبل أن يتوجهوا لاجتياز الصحراء ، والوصول الى الحجاز . وكانوا يقدون إليها من أعلى بلاد الرافدين وكردستان وأذربيجان والاناضول والقسطنطينية والبلقان . ولا يخفى أن السلاطين كانوا يحرصون على تنظيم الحج ، اظهاراً لسلطتهم على الحرمين الشرقيين وقد جعلوا بasha دمشق امير الحج ، وكفوه أن يسر على سلامة الحجاج ، وتأمين انتقال الحمّل الشامي عن طريق البحر الى المدينة ومكة المكرمة .

ومن هذا فإن دمشق كانت تستقبل كل سنة وفود الحجاج مرتين . عندما يقدمون إليها ويتعاونون من أسواقها جميع ما يلزمهم من رواحل ومؤن وأغذية وغيرها لقطع الصحراء ، ومرة ثانية عندما يعودون من الحج فيحملون فيها ويسعون ما حلوه معهم من توابل وعبيد وجوار وبضائع الشرق الاقصى التي كانت تباع في أسواق الحجارة .

* * *

ونعoz الآن الى شرح تطور دمشق العثماني في هذه الحقبة من تاريخها . وقد أنهت العناية بأسوارها وأبراجها ، وذلك لأنها أصبحت بعيدة عن المعارك التي كانت تجري غالباً في ميادين الدانوب والقوفاز . ثم أن تقدم فن المدفعية جعل من الانصراف عنها أمراً محسوماً له ما يوره . ولهذا فقد أخذ الناس يبنوون

بيوتاً متواضعة على الأسوار ، ويستفيدون من أساساتها . وامتدت الخنادق التي كانت أمامها بما كان يلقى بها من أنقاض وغيرها . وتركت القلعة وشأنها ، وانتقلت الحياة الرسمية منها ، ولم يبق فيها إلا حاكم كان يسميه السلطان لتمثيل سلطته في المدينة ولمراقبة البالشا الحاكم . أما أبواب السور فإنه لم يعد لها شيء من الفائدة أيضاً اللهم إلا أنها كانت في هذا العصر مناطق اجتياز ، تدخل منها البضائع إلى المدينة فتجري منها هناك المكوس البلدية المفروضة عليها . وقد اتصلت الأحياء الخارجية بها شيئاً بجسم المدينة ونشأ حي جديد في الجنوب الشرقي من القلعة ، وهو حي القنوات وأصبح مقر الاغنياء والمتغذين .

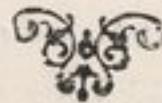
* * *

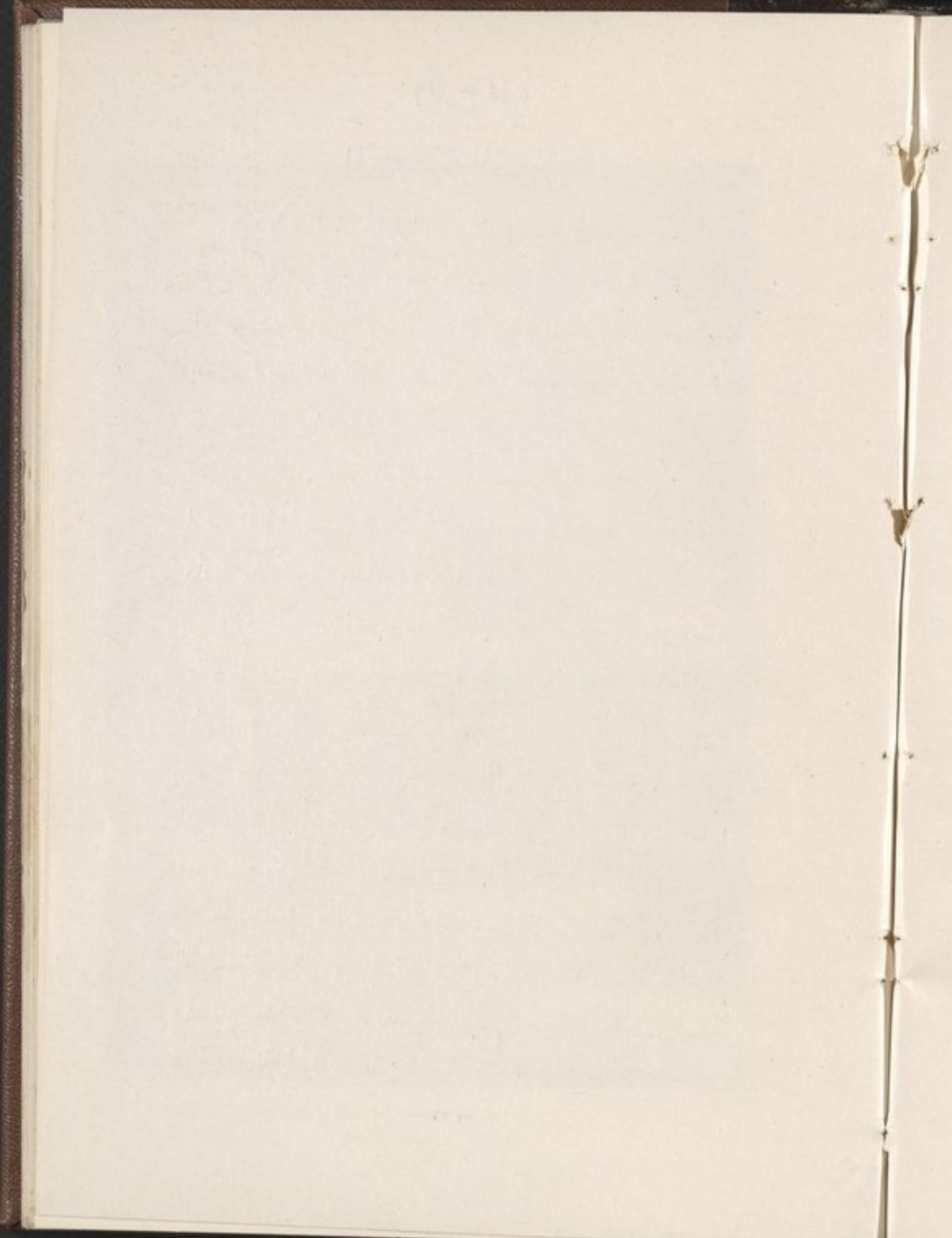
وقد بني السلاطين والولاة العثمانيون في دمشق عدداً من المنشآت الجميلة المختلفة كالنكتاب والجوامع والحمامات والقصور والخانات . ويلاحظ أن نموج المدرسة المغاربي ازدهر في هذا العصر على شكل جديد ، واتخذ شكل النكتاب التي تتالف من مجموعات من الأبنية ، تجتمع حول باحة واسعة ، باسقة الاشجار ، غزيرة المياه ، وتحوي مسجداً وغرفاً للدراوיש . ومنها التكية السليمانية التي بناها السلطان سليم الأول شرقى المرج الأخضر ، والتكية السليمانية التي شيدها ابنه السلطان سليمان القانوني غربى التكية الأولى ، وهي من أجمل الآثار الدمشقية . وقد شيد أيضاً سنان باشا جامع السنانية المعروف ، ودرويش باشا جامع الدرويشية ، والتربة المعروفة باسمه ، ومراد باشا جامع النقشبendi ، وسلامان باشا خان الحرير ، وأسعد باشا العظم اخان الذي يحمل اسمه وقصر العظم المشهور .

على أن معظم هذه المنشآت لا تحمل الطابع الدمشقي . إذ أن فن العمارة العثماني الإمبراطوري ، كان قد نشأ في القسطنطينية ، وامتد على قسم كبير من البلاد العثمانية ، وذلك بفضل جهود المهندسين خير الدين وكمال الدين وبايز وسنان . وينسب إلى هذا الأخير نحو ثلاثة وثلاثة وأربعين بناء شيدت في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وقد استوحى هؤلاء المهندسون فنهم من تقاليد الفن البيزنطي المائنة في جامع اياصوفيا ، الذي كان كتبة كبيرة بنيت في زمن جوستينيان العظيم . فوفقاً بين اشكال هذا البناء وبين متطلبات الصلاة ، وجعلوا عليه

قبة عظيمة مستندة على زوايا وقلبها تخطيطه الطولاني الى تخطيط عرضاني ، وحذفوا منه الدعائم والاعمداء ^{الكثيرة} التي تمنع المصلين من رؤية المحراب والامام ، واخافوا إلى شكله الخارجي منارات اسطوانية او ذات اخلال كثيرة تنتهي برؤوس مخروطية مدببة .

وقد قبل المغاربة الدمشقيون هذه المبادئ ، وعمموها في منشآتم التي استثنى من استعمال القبب والقباب ، واقتصرت في استخدام الزخارف ، وجعلت الالوح الفاسانية عنصراً رئيسياً في التزيين . وقد أضيفت هذه الابنية الجديدة الى الابنية الفديعة فأغنت ثروة دمشق الاثرية ، وتنوعت تأثيراتها البدعية .



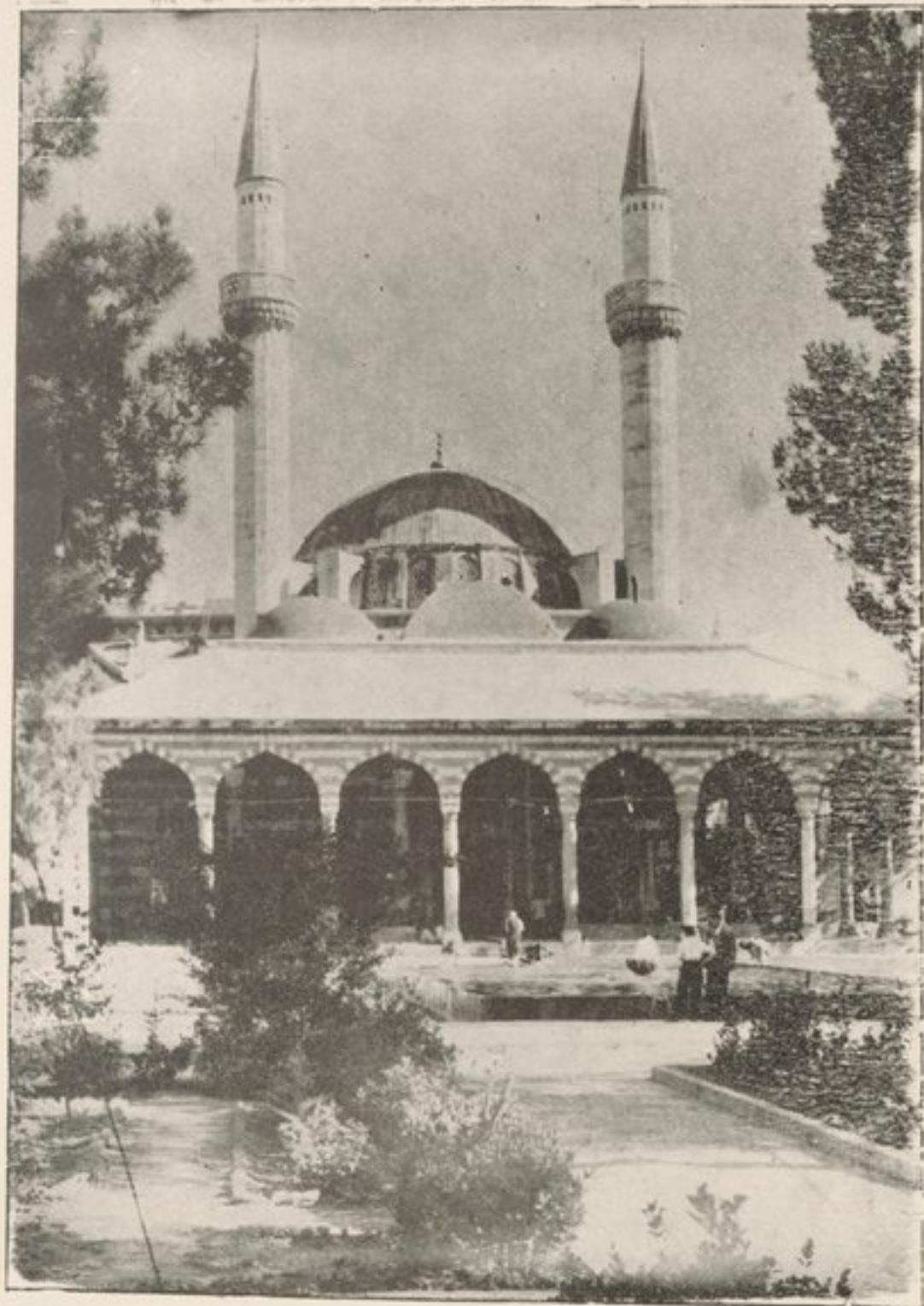


(اللوح ٤٥)

التكية السليمانية

شيدها السلطان سليمان القانوني غربي التكية السليمانية، مكان قصر الملك الظاهر بيبرس ، هدمه تيمورلنك . وكان يدعى (النصر الأبلق) وهي من أكبر الأبنية الأثرية في دمشق ، وأعظمها وقد اتخد في إنشائها التصميم العماني ذي القباب والأروقة ، الذي ظهر في القسطنطينية في آخر القرن الخامس عشر ، وأول القرن السادس عشر الميلادي . ومهندساها سنان المشهور . وقد استمر بناؤها ست سنوات ، وأنجزت سنة (٩٦٨ - ١٥٦٠ م) . وأريد أن تحوى مسجداً وتكية .

ويقع المسجد إلى جنوبها . وأمامه صحن فسيح تشغل وسطه بركة واسعة . وتعلو المسجد قبة عظيمة على حطة ، تطوف بها كوات من الجص المفرغ ، ويستندها من الخارج ركائز صغيرة محفوفة ، ومن داخل المصلى ذي الشكل المربع ، قاطر محمولة على أربع دعائم . ويحدها من طرفيها مئذتان كثيرة الأضلاع ورأسها مدببان ، وفي أسفل ثلثها العلوي شرفتان مزينةتان بالقرنchas . وأمام المصلى رواقان ، يعلو الواحد منها ثلاثة قبب صغيرة ، ويعلو الثاني سقف مائل . ويستند هذا الرواق على ستة أعمدة غرائبية ودعامتين جانبتين من الأمام وعلى عمودين من كل جانب بواسطة قاطر ملونة بالحجارة السوداء والبيضاء (اللوح ٤٥) .

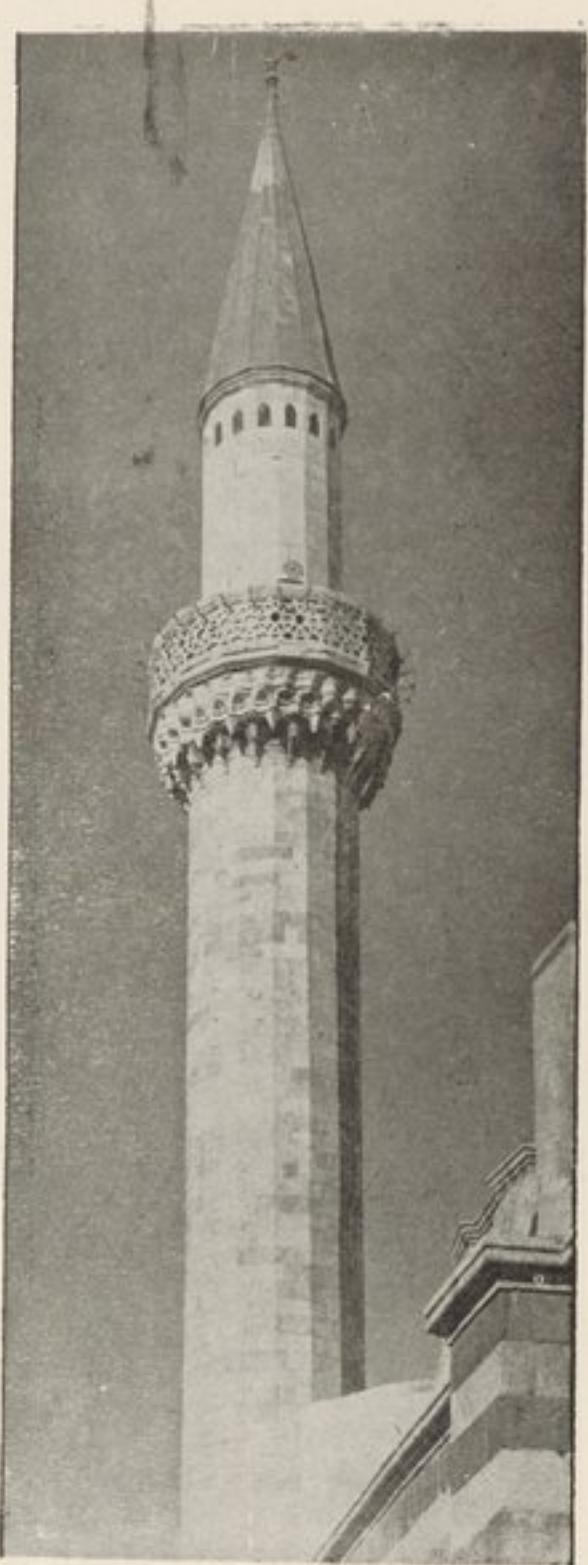
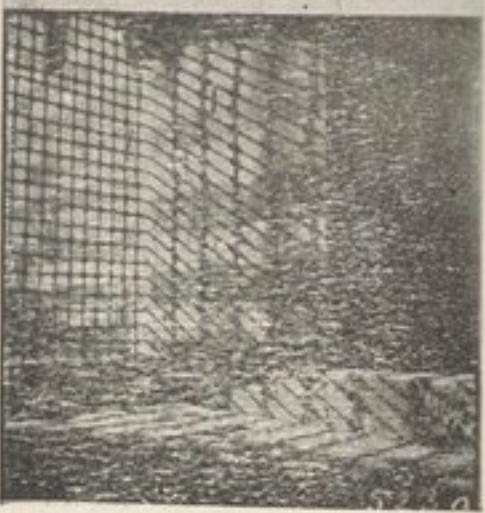
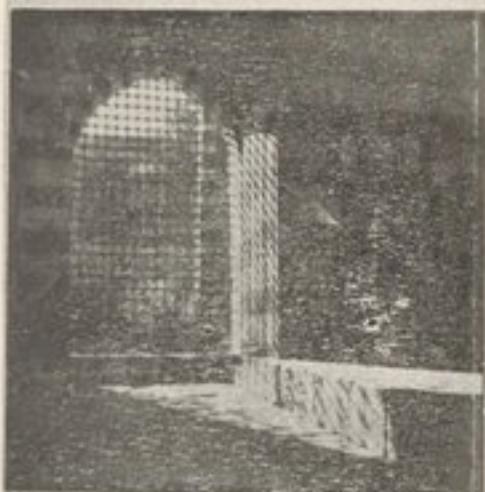


(اللوح ٤٦)

التكية السليمانية

ويدخل الزائر إلى التكية السليمانية من ثلاثة أبواب في شرقها وغربها وشمالها . وفي هذه الجهات تقوم ثلاثة أجنحة مستطيلة غير متصلة بعضها ، الشرقي والغربي عموديان على المسجد ، وكل منها رواق محول على أعمدة وتعلوه قبابات صغيرة ، ووراءه ست قاعات في كل منها مدخنة وفي سقفها قبة متوسطة . أما الجناح الشمالي فهو مواز للمسجد ، ويشبه الجناحين المقدمين في تنظيمه إلا أنه مخصص للمطبخ ومستودعات التكية . والى جانبه بنااءان يتصلان به ويكملان الجناحين ، ويتأخران قليلاً عنهما وليس لها أروقة . كان يأكل فيها الفقراء .

ومعها يكن فان أبنية تكية السلطان سالم منشأة على تحضير طقوس العادة العثمانية . وتحتفل عن القواليد الشامية في البناء التي ظهرت في منشآت كثيرة رأينا بعضها . بيد أن زخارفها الكثيرة بما فيها من ألواح القاشاني التي تزين ما فوق الأبواب وجدران حرم المسجد والألواح المرمرية المطعمية التي تزين هذه الجدران . وتعد من نفائس الصناعات الدمشقية في ذلك العهد .



(اللوح ٤٧)

ألواح قاشانية

دمشقية

يعود عهد صناعة القاشاني في سوريا إلى زمن العباسيين وقد بذلت دمشق وغيرها من المدن السورية بدقة مصنوعاتها القاشانية وجعلها بين انقرنين الرابع عشر والثامن عشر . ويظهر أن مصانعها كانت تقع في شرق المدينة . خارج الباب الشرقي ، حيث اكتشفت آثار عددها .

والقاشاني ألواح خزفية مربعة غالباً ، وتنقش على سطوحها زخارف ملوقة بالازرق النيلي والأزرق السماوي والأخضر وأحياناً الأحمر . وتحاط هذه الزخارف بخطوط سوداء دقيقة تجعلها بارزة على أساسها الأبيض . ثم تطبع فتكسب سطحها طبقة زجاجية رقيقة . وقد انتشر استعمالها كثيراً في تزيين جدران العمارات في العهد العثماني . وأشهر الأبنية التي زينت بها التكية السليمانية وتربة الشيخ محبي الدين بن عربي والتكية السليمانية ، وجامع درويش باشا وعدد من البيوت الخاصة .

وتتألف الزخارف القاشانية من المواضيع الكتابية والنباتية وال الهندسية . وتنص المواضيع الكتابية على آيات قرآنية ، أو جمل تتعلق بحوادث تاريخية مكتوبة بخط فارسي . وتنقسم المواضيع النباتية إلى أشكال طبيعية كأزهار الزنبق والقرنفل وأشجار السرو (اللوح ٤٧ الصورة الأولى) وتخللها أحياناً المشربات ، والى أشكال مبسطة عن الأشكال الطبيعية . أما المواضيع الهندسية فأنما تتألف من خطوط مستقيمة تجتمع في أشكال مختلفة ذات فروع عديدة .



(اللوح ٤٨)

قصر العظم

شيده والي دمشق أسعد باشا العظم سنة (١٦٦٣ هـ - ١٧٥٠ م) في موضع (دار الذهب) التي ترقى إلى عهد نكز نائب الشام. وهذا الموضع قسم من صحن معبد جويتر القديم. ولا يستغرب أن تكون قد انشئت عليه في عصر الأمويين دار معاوية كما يقال. وقد أراد أسعد باشا أن يكون هذا القصر لائقاً بعظمته. وكان متكبراً وحازماً ومحباً للمران. فانفق فيه أموالاً طائلة، وحشد له من الصناع وأرباب الحرف عدداً كبيراً، وجمع كميات كبيرة من العمدو الرخام والبلاط والقاشاني والأخشاب وغيرها، وشغل في أعمال البناء وانصرف عن غيرها. حتى أنهى القصر أخيراً أو في آية في جمال البناء. وبلاحظ أن منظره الخارجي بسيط ولا يدل على ما في داخله من مظاهر التراث. أما داخله فإنه يشتمل على مجموعتين متميزتين من الأبنية. وهما السلاملك والحرملك ويلحق بهما المدخل، والمطبخ والحمام.

أما المدخل فيقع في غربه وأمامه رحبة صغيرة تتصل بسوق البزورية. وله باب كبير يتوسطه باب آخر صغير. وهو ممر عريض معقود بصلبات حجرية. ثم يأتي السلاملك الخصص لاستقبال الضيوف ويشغل الجهة الجنوبية الغربية من القصر، وله صحن مستطيل في وسطه بركة ماء، وأيوان جنوبي واسع في طرفه قاعتان، وفي شماليه قاعة أخرى، وفيه درج يؤدي إلى غرف الطابق الثاني وغير ذلك.

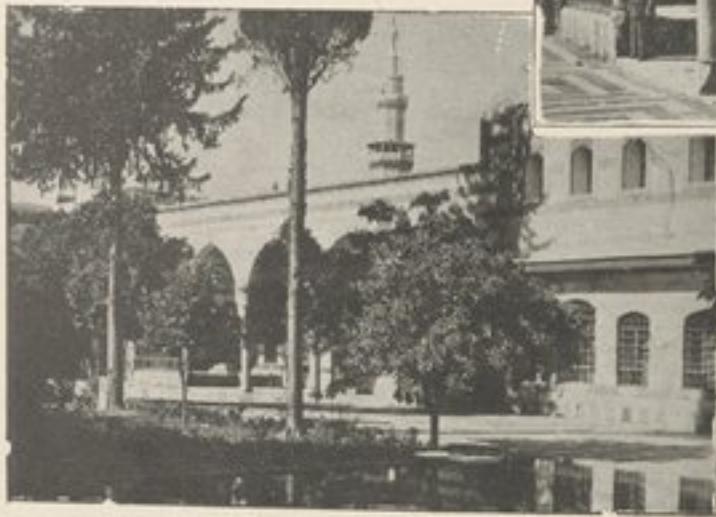
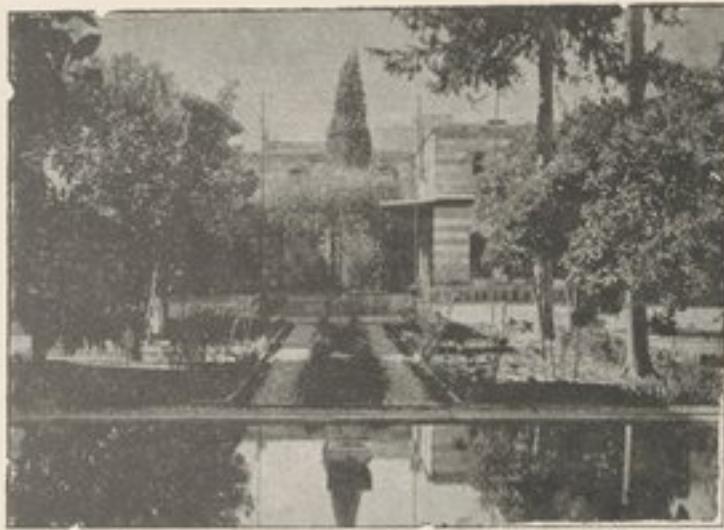
أما الحرملك فإنه يشغل معظم أقسام القصر ويعتد صحنه من الشرق إلى الغرب على شكل مستطيل، وفيه بركتان، وتحيط به القاعات والرواق الشمالي. وفي جنوبه أيوان واسع مزخرف بأنواع الزخرفة. ويرينا اللوح (٤٨) مشهد هذا الصحن من إحدى قاعات القصر، كما رأى قبة النسر للمسجد الأموي من بعيد.



(اللوح ٤٩)

قصر العظم

وتمثل الصورة الأولى من اللوح (٤٩) منظر صحن الحرمك مع بركتيه المستطيلة والمضلعة . كما ان الصورتين الثانية والثالثة تثلان رواقه الشمالي .
ويختص الحرمك بقاعاته الواسعة ذات الجدران المرخمة المحفورة والمزلة والملوقة ، والتي زين بعضها فساق الفسيفساء المجمدة بالرخام الملون والمذهب والمحفور والمجزع والمقصص ، وتعلوها سقوف خشبية مدهونة ومحفورة ومزخرفة بأبدع الزخارف الهندسية والنباتية والخطية التي تعد من أجمل مبتكرات الصناعات الدمشقية الفنية ، وأجمل هذه القاعات القاعة الكبرى المتألفة من ثلاثة أو اربع متناظرة . أينما تتجهت العين في اطرافها تجد ما يهنجها من آثار الصناعات الدقيقة والنقوش ومخارب المقرنصات ويشغل الخام الزاوية الشرقية الجنوبيه من الحرمك . وهو رحب . ويختص أنه يشبه الحمام العامي عاليه من أقسام ، ويزيد عليها بزخارفه المتنوعة . ويقع المطبخ في زاويته الشمالية الغربية ، ويتالف من دائرة مستقلة حول صحن صغير توسيعه بركانه . وفي شرق هذه الدائرة قاعة المطبخ الكبيرة ، وفيها عقود من الحجارة وموادر كبيرة على جدرانها ، وتوجد كذلك غرف عديدة للموان و الخدم حولها .
ولا ريب أن فن عمارة هذا القصر لا يزيد شيئاً من التجدد على المنشآت الدمشقية لأنّه يتمشى على القواعد القدิمة لانشاء البيت السوري من حيث التخطيط ، وتنظيم القاعات وبناء المداميك بالحجارة الملونة البيضاء والحراء والسوداء المتعاقبة . غير أن زخرفته الفنية تعتمد على كل ما عرفه الفنون الدمشقية من أساليب تطورها في القرن الثامن عشر ، ويزيد عليها بعض الاشكال التي حملها الفن العثماني الى دمشق .



(اللوح ٥٠)

خان أسعد باشا

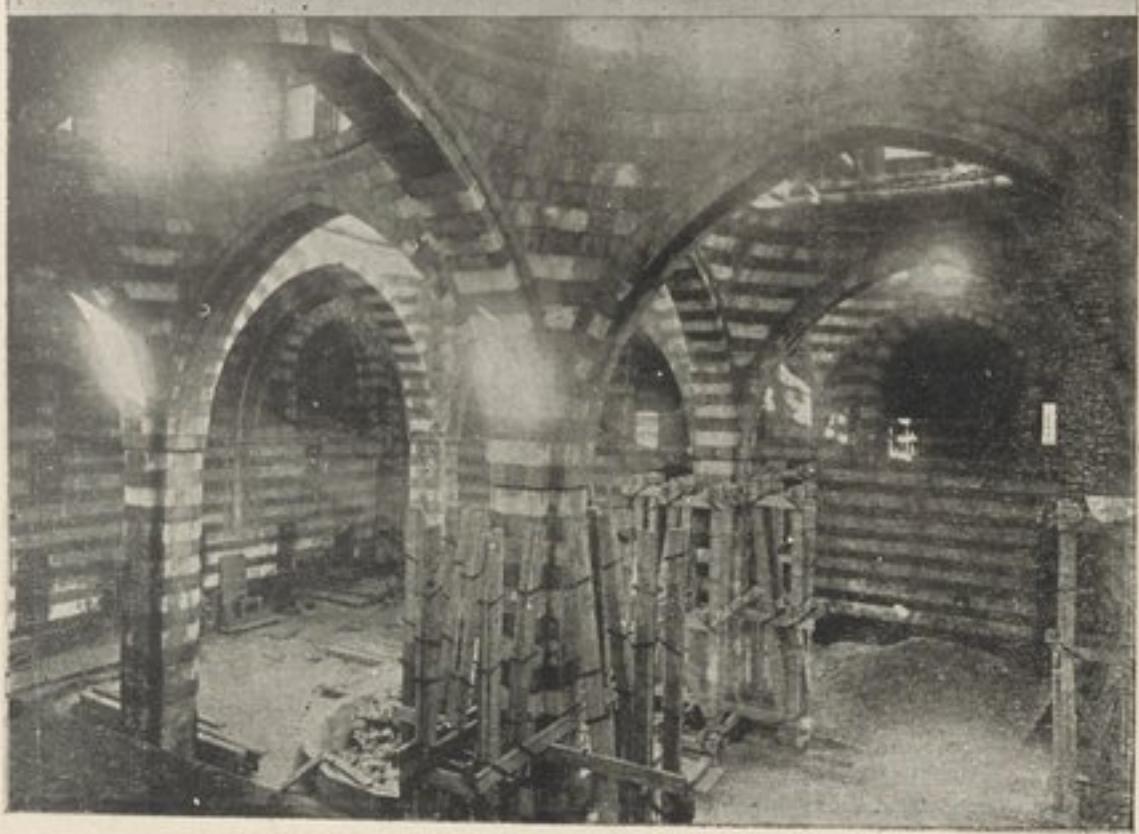
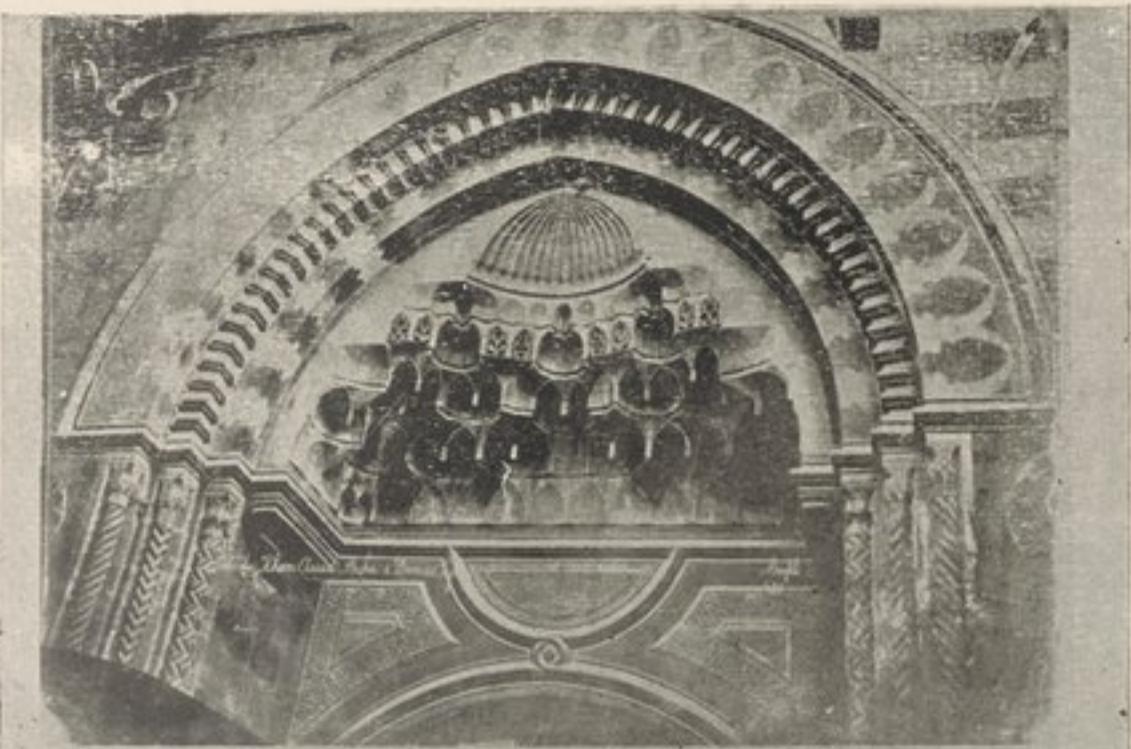
شيده أسعد باشا العظم سنة (١١٦٦ - ١٧٥٢ م). وهو أحد الخانات التي تجمع داخلها الحوانيت التجارية والمساكن المعدة للتجار الغرباء.

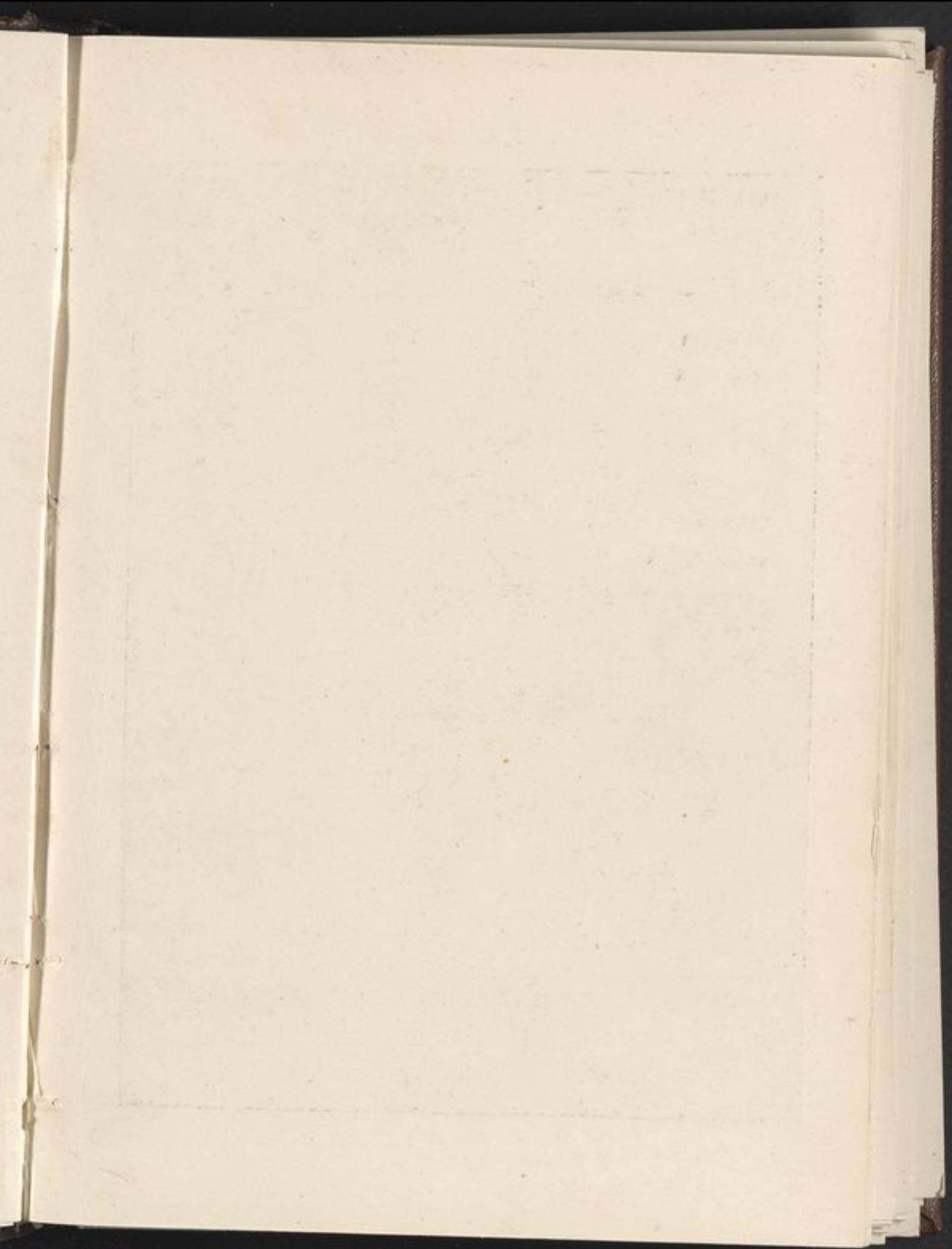
وقد بي على قواعد العمارة العثمانية. غير أنه يمثل ظرف الأبنية الشامية ورشارقها. وقد جعلت جدرانه وقناطره من الحجارة البيضاء والسوداء. وفيه باحة مركبة فسيحة توسيعها بركة ماء مضلعة، وتحيط بها من جميع جهاتها حاويت تجارية وينكون الصعود إلى الطابق الثاني على سلام قاعدة على طرف المدخل، ونؤدي إلى ممرات تنظم غرف السكن حولها.

ويغطي سقفه قبة متوسطة حولها غاني قباب متوزعة بصورة متناشرة على أطراف محورين متعمدين. وهي تستند بواسطة قناطر على أربع دعامات قائمة حول الباحة المركزية (الصورة الثانية من اللوح ٥٠).

ويجيئ هذا الخان الغربي قطعة فنية نادرة مبنية من الأحجار الملونة.

وفي كل طرف من طرف المدخل ثلاثة سويريات حجرية مزينة بقوسات بانية وهندسية مختلفة. وفوقه صفوف من المقرنصات المدلاة، ونصف قبة مضلعة (الصورة الأولى من اللوح ٥٠) ومن كل من طرفي هذا المدخل كوة مزخرفة ولها مقرنصات وتحتها محراب صغير جميل.





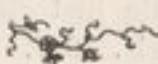
مصارف مختصرة

| | |
|--|-----------------|
| الدارس في تاريخ المدارس : للنعمي : تحقيق الأمير جعفر الحسني دمشق ١٩٤٨ | |
| تاریخ دمشق : ابن عساکر | |
| معجم البلدان : ياقوت | |
| الرحلة : ابن جبير | |
| خطط الشام - ٦ أجزاء - : محمد كرد علي | ١٩٢٨-١٩٢٥ |
| دمشق مدينة السحر والشعر : .. . | القاهرة ١٩٤٣ |
| غوطة دمشق : .. . | دمشق ١٩٤٩ |
| نزهات أثرية : سليم عادل عبد الحق | دمشق ١٩٤٧ |
| دمشق القديمة : صلاح الدين المنجد | دمشق ١٩٤٥ |
| قصر أسعد باشا العظم : .. . | دمشق ١٩٤٦ |
| أبنية دمشق الأثرية المسجلة : .. . | مجلة الشرق ١٩٤٨ |
| مختصر تنبیه الطالب وارشاد الدارس : للعلموي : تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٤٧ | |
| مساجد دمشق : لابن عبد الهادي تحقيق أسعد طلس دمشق ١٩٤٢ | |

BIBLIOGRAPHIE SOMMAIRE SHORT BIBLIOGRAPHY

- Creswell (K. A. C.) : Early Muhammedan Architecture. (Oxford. 1392)
- Dussaud (R.) : Le temple de Jupiter Damascénien et ses transformations aux époques chrétienne et musulmane (Syria 1922)
- " " : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale. Paris. 1927.
- Ecochard (M) : Palais Azem de Damas,
- " " : Les Bains de Damas,
- Gaudefroy-Demonbynes: La Syrie à l'époque des Mamlouks, Paris 1923.
- Hartmann (R.) : Art. Damas, dans l'Encyclopédie de l'Islam.
- Jalabert R. P.) : Art. Damas dans Dic. d'archéologie chrétienne et de liturgie.

- Kermer (A Von) : Topographie von Damascus. Vienne (1854-55).
- Herzfeld (E.) : Damascus : Studies in Architecture, I, II, III, and IV, from Vol. IX, X, XI - XII, and XIII of Ars Islamica.
- Lammens (H.) : Etudes sur le règne de Mo'awiya. Beyrouth 1908
- " " : Etudes sur le Califat de Yézide T. Beyrouth 1921.
- " " : Etudes sur le siècle des Omeyyades. Beyrouth 1930.
- " " : Walid I et la Mosquée des Omeyyades à Damas. Beyrouth 1930.
- Lorey (de Et) : Les Mosaïques de la Mosquée des Omeyyades à Damas. Paris 1930.
- " " : et Sauvaget : Le palais Azem à Damas. Paris 1929.
- Marcey (G.) : L'art de l'Islam. Paris 1946.
- Moaz (Kh.) : Le mausolée d'Ibn al-Muqaddam. Damas. 1929.
- Saladin : Manuel d'art musulman. 2 vol. Paris. 1907.
- Sauvaget (J.) : La citadelle de Damas. Syria 1930.
- " " : L'architecture Musulmane en Syrie. 1934.
- " " : Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, dans la Revue des Etudes Islamiques. 1934.
- " " : Monuments historiques de Damas. Beyrouth. 1935.
- " " : Damas et la Syrie du Sud. Paris 1936
- " " : Le plan antique de Damas. Syria 1949.
- Sauvaire (H.) : Description de Damas. Journal Asiatique 1894-1896.
- Vincent (H.) : Canaan d'après l'exploration récente, Paris 1914.
- Wulzinger (H) et Watzinger (C) Damascus, I: Die Antike Stadt, II: Die Islamische Stadt, Berlin et Leipzig. 1924.



أسماء الأبنية الارثية المسجنة في دمشق

والبلدة مواضعها في المخطط اللاحق

| | الآثار الرومانية | رقم التسجيل |
|-----|---|-------------|
| ١٩ | المدرسة النورية الكبرى | |
| ٧٣ | ست الشام (تربة الأمير نور الدين بن زين الدين) | |
| ٧٥ | دار الحديث نور الدين | |
| ٦ | الآثار الأيوية | |
| ٣ | برج الصالح أبوب | |
| ٥ | باب توما | |
| ٦ | باب السلام | |
| ٨ | باب الجابية | |
| ٩ | باب الفرج | |
| ١٠ | باب الفراديس | |
| ١٢ | القلعة | |
| ٢٠ | المدرسة الفروخشاهية | |
| ٢١ | المدرسة الشامية البرانية | |
| ٢٢ | ضريح صلاح الدين | |
| ٢٣ | ضريح طلحة - ابن المقدم | |
| ٢٤ | المدرسة العادية الكبرى | |
| ٢٥ | المدرسة العزية - البرانية | |
| ٢٦ | جامع التوبة | |
| ٢٨ | النبي يونس (تربة مجده) | |
| ٤١ | جامع السادات (مسجد القصب) | |
| ٤٧ | ضريح القمرية - تربة القمرية | |
| ٥٨ | المدرسة العمرية | |
| | الآثار الاموية | |
| ١ | قسم السور المتند من باب السلام | |
| | إلى باب توما | |
| ٤ | باب شرقي | |
| ١٣ | القناة الرومانية | |
| ١٤ | حفريات القديس حنانيا | |
| ٢ | الآثار الاموية | |
| ١٥ | الجامع الاموي | |
| ٣ | الآثار الفاطمية | |
| ١١٨ | قبور السيدة فاطمة | |
| ٤ | الآثار السلجوقية | |
| ١٦ | ضريح صفوة الملك | |
| ١١٩ | ضريح السيدة سكينة | |
| ٩٣ | جامع القدم | |
| ٥ | الآثار النورية | |
| ٢ | برج نور الدين | |
| ٧ | باب الصغير | |
| ١٧ | بيمارستان نور الدين | |
| ١٨ | حمام نور الدين | |

| رقم التسجيل | |
|-------------|--|
| ٥٩ | جامع الحاتونية |
| ٦٠ | تربة البدرى |
| ٦١ | جامع الخانلة (جامع المظفرى) |
| ٦٢ | ركن الدين (المدرسة الركينة البرانية) |
| ٦٣ | جامع الماردانية (المدرسة الماردانية) |
| ٦٤ | ضريح اليعورية (تربة أمّة المصطفى) |
| ٦٥ | المدرسة الاتابكية |
| ٦٦ | مدرسة الصاحبة |
| ٦٧ | بخارستان القمرى |
| ٦٨ | ضريح مغفل (تربة مجحولة - في الدحداح) |
| ٦٩ | السلطان حسن (الترفة التجمية) |
| ٧٧ | ضريح محمود بن زنكي |
| ٧٨ | المدرسة القليجية |
| ٨٥ | تربة الاختانية (المدرسة الاختانية) |
| ٨٦ | حمام السلطات |
| ٩٥ | حمام السروجي |
| ٩٦ | المدرسة الجهاركية |
| ٩٧ | ضريح ابن سلبي (تربة ابن سلامة الرقي) |
| ٩٨ | ضريح الفرنطى (الترفة الفرنطية) |
| ٩٩ | الترفة الحافظية - سقى حفظة |
| ١٠٠ | المدرسة المرشدية |
| ١٠٢ | المدرسة الناصرية |
| ١٠٣ | المدرسة البدائية |
| ١٠٦ | جامع سقى رابعة (السيدة رابعة العدوية - الشامية) |
| ٤٨ | جامع سيباى (المدرسة السيبائية) |
| ٤٤ | المدرسة الجمقية |
| ٤٥ | مئذنة جامع هشام |
| ٤٦ | سقى القاعي |
| ٤٠ | سبيل الخزنة (الأمير سيف الدين) |
| ٣٩ | الرشيدية (المدرسة الرشيدية) |
| ٣٨ | التينية (الترفة البشكية) |
| ٣٧ | جامع منجك |
| ٣٦ | حمام الورد |
| ٣٥ | ضريح اراك (تربة آراك) |
| ٣٤ | جامع افريدون العجمي (المدرسة الافريدونية) . |
| ٣٣ | الولي الشيباني (الترفة الجيعانية) |
| ٣٢ | جامع تذكر |
| ٣١ | سبيل البريدي |
| ٣٠ | المدرسة الظاهرية |
| ٢٩ | جامع يلبعا |
| ٢٧ | حمام الجوزة |
| ٢٦ | باب كيسان |
| ٧ | آثار الماليك |
| ١١ | جامع خالد بن الوليد |
| ١٢ | العادية الصغرى |
| ١٣ | مسجد الجراح |
| ١٤ | دار الحديث الاشرافية |
| ١٥ | تربة مثقال |

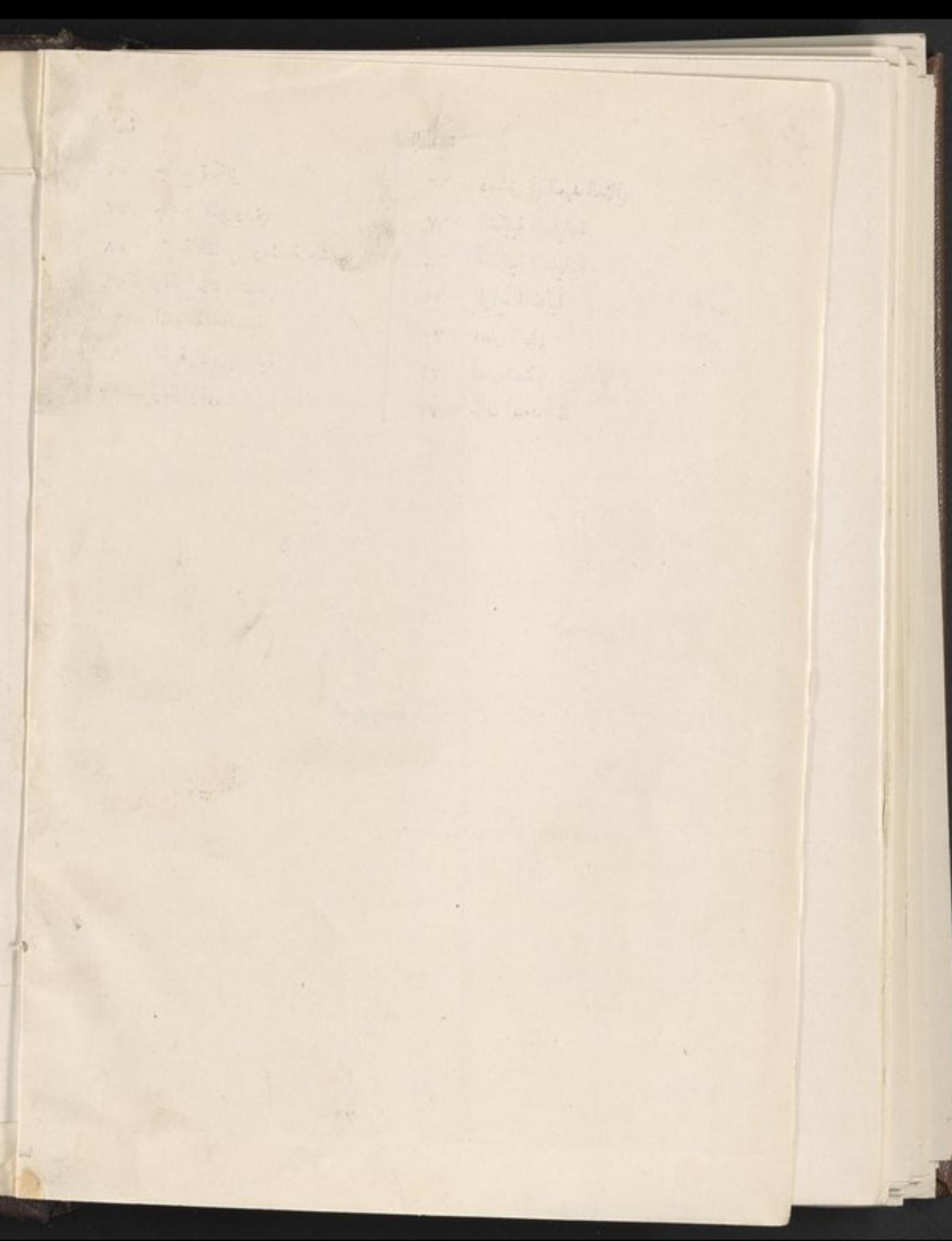
| رقم التسجيل | |
|-------------|--|
| ٦٨ | تربة سفي خانون (التربة العادلية) |
| ٦٩ | مدرسة التابوتي (التربة التكريتية) |
| ٧٠ | قبة النصر |
| ٧٩ | دار الحديث تتكز |
| ٨٠ | الشيخ النحلاوي (التربة الكوكائية) |
| ٨١ | المدرسة الفنشلية |
| ٨٢ | جامع الطاووسية (خانقاہ الیونسیة) |
| ٨٣ | جامع السنجدار (ارغون شاہ) |
| ٨٤ | حمام الرفاعي |
| ٨٧ | الشيخ حسن (التربة التمکینیة) |
| ٨٨ | جامع الصابونیة (المدرسة الصابونیة) |
| ٨٩ | جامع المعلق |
| ٩٤ | حمام الزین |
| ١٠٤ | جامع الجوزة |
| ١٠٥ | النحاسیة (المدرسة النحاسیة - خانقاہ) |
| ١٠٧ | جامع الشيخ رسلان |
| ١٠٩ | التربة البدرية - ٢ |
| ١١٠ | المدرسة الحیضریة |
| ١١٣ | التربة الكچکوریة - التربة الكچکرنیة |
| ١١٥ | المدرسة الدلامیة |
| ١٢٠ | تربة الامیر غورلو |
| ١٢١ | مئذنة جامع الفاري |
| ١٢٢ | تربة كعب بن أبي |
| ١٢٣ | ـ معاویة |
| ١٢٤ | التربة الخوارزمیة |
| ١٢٥ | ـ القوامیة |
| ٨ | - الاثار العثمانیة |
| ٩ | التكیتان (السلیمانیة والسلیمانیة) |
| ١٠ | مسطبة سعد الدين (الزاویة الجباویة) |
| ١١ | خان الحریر (درویش باشا) |
| ١٢ | جامع درویش باشا |
| ١٣ | ضریح ـ ـ (تربة درویش باشا) |
| ١٤ | جامع سنان باشا |
| ١٥ | خان سليمان باشا |
| ١٦ | قصر العظم |
| ١٧ | خان أسعد باشا |
| ١٨ | جامع حکی الدين بن العربي |
| ١٩ | مطعم السلطان سليمان العسكري (|
| ٢٠ | (مطبخ تکیة السلطان سليم) |
| ٢١ | مکتب السنانیة |
| ٢٢ | حمام فتحی |
| ٢٣ | خان الجراک |
| ٢٤ | جامع النقشبندی (جامع مراد باشا) |
| ٢٥ | جامع الشیخ عبد الغنی |

- الفهرس -

| الصفحة | الصفحة |
|---|--------------------------------------|
| ٣١ - دمشق في ازمان السلاجقوسين ونور الدين والابوبيين والمالك . | ٣ - دمشق قبل الفتح العربي |
| ٣٨ - بيمارستان نور الدين | ٦ - لوحة حجري منحوت من معبد حدد |
| ٣٩ - الباب الصغير | ٧ - مخطط دمشق في العهد الروماني |
| ٤٠ - برج نور الدين | ٨ - سور الروماني |
| ٤١ - الجامع المظفري | ٩ - الباب الشرقي |
| ٤٢ - الجامع المظفري | ١٠ - القضاة الرومانية |
| ٤٣ - جامع التوبة | ١١ - الشارع المستقيم |
| ٤٤ - محراب جامع التوبة | ١٢ - معبد جوبير الدمشقي |
| ٤٥ - المدرسة العادلية | ١٣ - الجبهة الغربية |
| ٤٦ - المدرسة العزيزية وتربة السلطان صلاح الدين . | ١٤ - كنيسة القديس خايانا |
| ٤٧ - ضريح السلطان صلاح الدين | ١٥ - دمشق في زمن الامويين والعباسيين |
| ٤٨ - تربة ابن المقدم | ٢١ - المسجد الاموي |
| ٤٩ - بيمارستان القمرى | ٢٢ - قبة الخزنة |
| ٥٠ - القلعة البرج الشمالي الشرقي | ٢٣ - البلاطة الوسطى في المسجد الاموي |
| ٥١ - قلعة دمشق - الابراج الشرفية | ٢٤ - فسيفساء المسجد الاموي |
| ٥٢ - باب توما | ٢٥ - فسيفساء المسجد الاموي |
| ٥٣ - باب السلام | ٢٦ - الحرم في المسجد الاموي |
| ٥٤ - برج الصالح أبوب | ٢٧ - محراب المسجد الاموي |
| ٥٥ - سور | ٢٨ - قصر الحير الغربي |
| | ٢٩ - قصر الحير الغربي |
| | ٣٠ - قصر الحير الغربي |

| الصفحة | الصفحة |
|-----------------------------|-------------------------------|
| ٦٣ - دمشق في العهد العثماني | ٥٦ - جامع تكز |
| ٦٧ - التكية السليمانية | ٥٧ - جامع التبروzi |
| ٦٨ - التكية السليمانية | ٥٨ - مئذنة القلعي ومئذنة هشام |
| ٦٩ - الواجهة قاشانية | ٥٩ - تربة الملك الظاهر |
| ٧٠ - قصر العظم | ٦٠ - المدرسة الجمقية |
| ٧١ - قصر العظم | ٦١ - التربة الأفريديونية |
| ٧٢ -- خان أسد باشا | ٦٢ - تربة أوغورلو |





مکانیزم انتشار اسلام
عطفه صفت



